وزارة الثقافة

مذكرات دجاجة

تأليف: إسحاق موسى الحسيني

وزارة الثقافة

Ministry of Culture

رقمنة

مذكّرات دجاجة

تأليف: إسحق موسى الحسيني

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٤٣

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: إسحق موسى الحُسَيني
اسم الكتاب: مذكّرات دجاجة
الطبعة الأولى: ١٩٤٣

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنان: نقولا صايغ

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

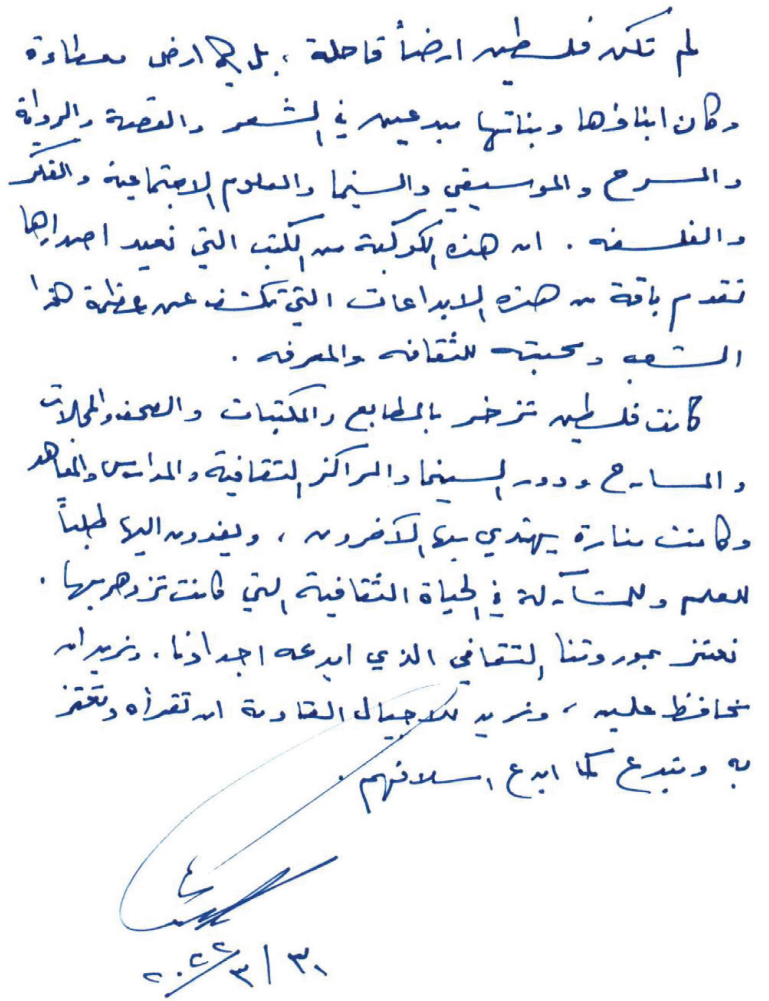

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الاخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٢

مذكّرات دجاجة

تقديم الكتاب

لهذا الكتاب في نفسي ذكرى لا أنساها..

فقد قرأته أول مرة منذ أكثر من أربعين عامًا، وتأثرت به تأثيرًا شديدًا، وظل عالقًا بذاكرتي وإن كنت قد فقدته بعد ذلك ولم أستطع أن أعثر على نسخة منه، ولكني في السنوات الأخيرة كلما قابلت واحدًا من الكتّاب والمفكرين العرب حتى جاء ذلك هذا الكتاب على أنه من روائع الأدب العربي الحديث، وعادةً ما ينتهي الحديث بأمنية هي أن تعيد دار المعارف نشر هذا الكتاب لتقرأه الأجيال الجديدة وتعلم أن الوجدان العربي لم يكن غافلًا عن المؤامرات الكبرى التي تحيط بالوطن العربي.

ومنذ شهور تلقّيت أكثر من طلب من دور نشر أوروبية لترجمة هذا الكتاب إلى عدة لغات، وصدرت فعلًا ترجمة حديثة باللغة الإنجليزية، فرأيت أن القارئ العربي أولى بأن يقرأ هذا الكتاب.

وهكذا تتأكد أقوال الدجاجة الحكيمة التي قالت إن كلمة الخير شجرة مباركة لابد أن تثمر عاجلًا أو آجلًا، كما يتأكد كل يوم قولها بأن حياة الاستسلام جُبْن لا يُقدم عليه إلا الأرذلون من المخلوقات.

والحقيقة أن كل ما قالته وما فعلته هذه الدجاجة العربية الحكيمة يستحق أن نتأمله ونحسن الاستفادة به، فهي دجاجة شجاعة، وحكيمة، وصاحبة رسالة، تتكلم بحرارة المؤمن، وتدعو إلى العدل والمساواة

والمحبة، وتنبه البشر إلى حقيقة تغيب عنهم فيكون ذلك سببًا في اندلاع الشرور والحروب والعنف، فتصيح فيهم إن الصغير والضعيف حين يتعرضان للظلم تثور في نفسيهما أحقاد تدفعهما إلى ارتكاب الشر، وبذلك يورث الظلم ظلمًا، والشر شرًّا.

وفي حكمة الدجاجة العربية مواجهة لكثير من ضلالات البشر.

ومن هذه الضلالات أن الفرد يستطيع أن يستمتع بالسعادة منفردًا دون غيره، وبتأثير هذا الوهم يسرق اللص مال غيره، ويلجأ النذل إلى الخيانة، ويتوسّل الدنيء بالكذب والنفاق، أو الاحتيال.

ومن ضلالات البشر أن المادة هي سبيل السعادة الوحيد، فمن كثر ماله كثرت سعادته. وهذه ضلالة من أخطر الضلالات، لأن من أحب شيئًا استهان بجميع الوسائل الشريفة في سبيل إحرازه وبذل كرامته ومروءته في سبيل الاحتفاظ به.

ومن ضلالاتهم أن النصر حليف القوة، بينما القوة لا تدوم، والذي يدوم هو الحق وحده، وأن استعمال سلطان القوة تردي الخلق، فكل قوي فوقه من هو أقوى منه، ومن صرع بقوته يومًا صرعته قوة غيره يوما آخر.

هذه الدجاجة العربية تنطق بالحكمة، وتقف في موقف المعلم للبشر، وتكشف الضلالات التي يعيشون فيها، ولكنها تعلم أنه لا يقدر على مقاومة هذه الضلالات إلا من وهبه الله عزمًا، وحزمًا.. وإيمانًا وثقة..

وأخـيرًا فـإن هـذه الدجاجـة أكـثر شـجاعةً وأقـوى عزيمـةً مـما نتصـور.. فهـي تُعلـن أمـام المخلوقـات جميعًـا - البـشر وغيرهـم - بأنهـا عاهـدت اللـه أن تحفـظ حرمـة المـأوى الـذي أودعـت فيـه جثـمان زوجهـا وذويهـا، وشـاهدت فيـه نمـو مبادئهـا.

ألسـت محقًـا إذا تمنّيـت أن يقـرأ هـذا الكتـاب كل عـربي، كل شـاب، وكل طفـل، وكل شـيخ؛ لـكي يسـتلهموا منهـا الحكمـة والقـوة.

ولا أعـرف مـاذا تقـول عنـي - يـا عزيـزي القـارئ- إذا صارحـت بشـعوري بعـد أن قـرأت هـذا الكتـاب مـن جديـد.

فقـد تمنّيت أن أكون مثل هذه الدجاجة.

رجب البنا

مقدمة
بقلم الدّكتور: طه حسين

هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة، ماذا أقول! بل هي دجاجة مفلسفة تدرس شؤون الاجتماع في كثير من التعمّق وتدبّر الرأي، فتصل إلى اكتشاف بعض الأدواء الاجتماعية وتصف لها الدواء. ماذا أقول! بل هي دجاجة شاعرة تجد ألم الحب ولذته وعواطفه الختلفة التي تدق أحيانًا حتى لا يهتدي إليها إلا الشعراء الملهمون ولا يقدر على تصويرها إلا الذين أوتوا حظًّا من سحر البيان! بل هي دجاجة رحيمة تعطف على الضعفاء والبائسين وترق للمحرومين وتؤثرهم على نفسها وإن كان بها خصاصة، وهي على هذا كله بليغة فصيحة تفكّر فتحسن التفكير وتؤدي فتجيد الأداء. ومن المحقق أن هذه الدجاجة تشعر شعور الناس وتفكر تفكيرهم وتعبر كما يعبرون. وقد كنا نظن أن عيوب الناس مقصورة عليهم حين تتصل بالأخلاق الفردية والاجتماعية، فإذا هذه الدجاجة تبيّن لنا أن عيوب الناس شائعة في نوع من أنواع الحيوان وهو الدجاج، وأن محاسن الناس - وهي قليلة - تُشاهد أيضًا في هذا النوع من أنواع الحيوان وهو الدجاج.

وكذلك كشفت لنا هذه الدجاجة عن نظراء يشاركوننا في لذاتنا وآلامنا وفي محاسننا وعيوبنا. وهي في ذلك تشبه تلك الحيوانات التي تحدثت في كليلة ودمنة منذ قرون طوال. ومن يدري؟ لعلها تتحدث كما تحدّثت تلك الحيوانات جاعلة من نفسها رمزًا لنا معربةً عما لا نستطيع نحن أن نعرب عنه حين نريد أن نصوّر حياتنا ونصف ما فيها

مـن العيـوب والأدواء. وهـذه الدجاجـة فلسـطينية وقـد كتبـت مذكراتهـا في أكـبر الظـن بلغـة الدجـاج وعـلى النحـو الـذي يصطنعـه هـذا النـوع حـين يكتـب شـيئًا أو تصويـرًا عـلى ضروب مـن الصحـف لا نعرفهـا نحـن، واللـه عـز وجـل قـادرٌ عـلى كل شيء، وقـد علـم سـليمان عليـه السـلام منطـق الطـير ولغـة الحيـوان. وكأنـه علـم صديقنـا الدكتـور إسـحق الحسـيني لغـة الدجـاج، فقـد قـرأ مذكـرات هـذه الدجاجـة الفلسـطينية ففهـم عنهـا أحسـن الفهـم وترجـم عنهـا أحسـن الترجمـة، وقرأنـا نحـن ترجمتـه هـذه فشـاركنا دجاجـة فلسـطين فيـما أحسـت مـن حـزن وفـرح ومـن لـذة وألم. ورأينـا – ومـا أعجـب مـا رأينـا – أن دجاجـة فلسـطين تجـد مـن حـب الخـير وبغـض الـشر والطمـوح إلى المثـل العليـا في العـدل الاجتماعـي وفي العـدل الـدولي وفي كرامـة العروبـة وحقهـا في عـزة حديثـة تلائـم عزتهـا القديمـة بمـا يجـده كل عـربي مـن أهـل فلسـطين بـل مـن أهـل الـشرق العـربي كلـه فليـت شـعري أيهـما ترجـم عـن صاحبـه! ترجـم الدكتـور إسـحق الحسـيني عـن الدجاجـة أم ترجمـت الدجاجـة عـن إسـحق الحسـيني؟ وأي غرابـة في ذلـك؟ لقـد مضـت سـنة الشـعراء مـن العـرب عـلى أن يُشـاركوا الحمائـم في الحـب والحنـين والأسى، فيترجمـون عنهـن حينًـا ويزعمـون أنهـن يترجمـن عنهـن حينًـا آخـر:

أبنات الهديل أسـعدن أوعد

ن قليل العـــــزاء بالإســـعـــــاد

إيـه لله دركـــــــــــــــن فأنتـــــــ

ن اللواتي تحسن حفظ الـــــوداد

فـما يمنـع الدكتـور إسـحق الحسـيني أن يتجـاوز بهـذا الفـن حـمام القدمـاء إلى دجـاج المحدثـين!

أمـا بعـد فـإني سـعيد حـين أرحـب بهـذا الكتـاب بـين أجـزاء هـذه السلسـلة لأنـه كتـابٌ قديـمٌ كريـم ولأنـه كتـاب أخٍ مـن أهـل فلسـطين ولأن في صـدوره بـين أجـزاء هـذه السلسـلة بـرًّا بمـا وعدنـا بـه مـن جعـل هـذه السلسـلة وسـيلة مـن وسـائل التعـاون الثقـافي وأداة مـن أدوات الوحـدة الفكريـة بـين أهـل الوطـن العـربي كلـه.

فلصاحـب هـذه القصـة تحيـة المحـب الـذي ينتظـر لفنـه مسـتقبلًا باهـرًا ويُنظـر منـه منـه خـير كثـير.

طه حسين

إلى القارئ

أيها القارئ الكريم:

هـذه القصـة تصـف حيـاة دجاجـة عاشـت في بيتـي، وقـع بينهـا وبينـي ألفـة ومحبـة. فكنـت أطعمهـا بيـدي وأرقـب حياتهـا يومًـا فيومًـا. والأحـداث التـي ترويهـا وقعـت لهـا بالفعـل، وهـي لا تتجـاوز المألـوف في حيـاة الدجـاج. ولـو قُـدّر لصديقتـي الدجاجـة أن تتكلـم بغلـة الأنـاسيّ لمـا قالـت غـير مـا تقـرأ. فأنـا - في الواقـع - أترجـم لـك مـا أوحـت بـه إليّ. أمـا عنـصر الخيـال فيهـا فضئيـل، وهـو لا يعـدو أن يكـون تعليقًـا عـلى هامـش الحيـاة أو تحليقًـا في عـالم المثـل العليـا.

إسحق موسى الحسيني

القدس: يوليو سنة ١٩٤٣

مذكّرات دجاجة

١

هـذا هـو اليـوم الثالـث مـن انتقـالي إلى بيتـي الجديـد، ويظهـر أني سـأكون سـعيدة هنـا بـين أتـرابي الجديـدات. إني حزينـة لفـراق بيتـي القديـم، ولكـن حـزني لـن يطـول. كنـت في بيتـي القديـم أجـد ميـدان الحيـاة واسـعًا، والهـواء طلقًـا، ولكنـي كنـت أشـكو عـسر الحيـاة وقلـة الطعـام، وعـدم مبـالاة مضيفتنـا بعلفنـا عـن سـعة عـلى أني كنـت مـع ذلـك أجـد مـن ربـة البيـت حبًّـا كثـيرًا. كنـت أشـعر أنهـا تخالطنـا بروحهـا، وتُعنـى بأمورنـا عنايـة تحملهـا عـلى أن تعدّنـا كل صبـاح عنـد انطلاقنـا مـن مأوانـا، وكل مسـاء عنـد عودتنـا إليـه. مـا كنـت أفهـم سر هـذا العـد، ولكنـي أحملـه عـلى محافظتهـا عـلى أرواحنـا. بيـد أنـه إن كان الأمـر كذلـك فلـم فرّطـت ربـة البيـت بي؟ لقـد كنـت أحفـظ لهـا في قلبـي جميـلًا، وكنـت أنظـر إليهـا حينـما أخـرج مـن المـأوى نظـرة إعجـاب وحـب صـادق، وكنـت أظـن أنهـا تبادلنـي شـعوري، وأني سـأمكث عندهـا مـدى الحيـاة. ولكنـي فوجئـت يومًـا بقدومهـا إلينـا عـلى غـير عادتهـا مبكـرة في الصبـاح. ومـا أدري سر انقبـاض زوجهـا في ذلـك اليـوم. يظهـر أنـه كان يشـعر شـعورًا غريبًـا. لقـد كان يُكـثر مـن الصيـاح، وكان في صوتـه أنـينٌ شـعرت بـه، ونبّهـت إليـه إحـدى رفيقـاتي. فقالـت لي: إنـك متشـائمةٌ اليـوم. قلـت: قـد يكـون ذلـك، وأرجـو أن يكـون يومنـا كأمسـنا. وبعـد لحظـة دخلـت ربـة البيـت علينـا، وأقفلـت وراءهـا البـاب. فزعنـا. وكنـت أشـد رفيقـاتي فزعًـا، وأسرعهـن إلى القفـز إلى البـاب. وأخـذت أحـدق إلى الربـة أتأمـل وجههـا، وأحـاول أن أتبـين فيـه سرّ

بكورها، ولكنها بدلًا من أن تنظر إليَّ كعادتها لمع في عينيها بريقٌ ما رأيت نظيره من قبل وبعد قليلٍ أقبلت نحوي في سرعة واضطراب، فثبت في مكاني وأنا مشفقة عليها متكدرة حزينة، لأني أرى في اضطرابها ما أعجز عن تخفيفه. ثم أسرعت الخطى وانقضت علي، فنظرت إلى رفيقاتي وإلى زوجي الطيب فوجدتهم جميعًا جزعين. ويظهر أن دُوارًا أصاب رأسي منعني من التفكير في أمري، ولما عاد إلي شعوري وددت لو تُبيح ربة البيت إطلاقي لأوُدّع رفيقاتي وزوجي الطيب. ولكنها بدلًا من أن تعينني على تحقيق رغبتي أوثقت قدميّ ووضعتني في جفنة وجاءت بي إلى هذا البيت الجديد.

من يدري لعلني أسرفت في سوء الظن، ولعل ربة البيت آنست مني ضيقًا بالحياة، فأرادت أن تروّح عني بمجيئي إلى هذا البيت. ولكن ليتها خيرتني في البقاء والذهاب. وليتها رفقت بي ولم توثق رباطي. ولكني إذ أعود بذاكرتي إلى حياتي في البيت القديم لا أرى ما يدل على أن ربة البيت حسبت لرأيي حسابًا. هذا ما يظهر شأن هذه العملاقة التي رزقها الله بسطةً في الجسم تُخيفنا وتُرعبنا. كم كنت أتمنى لو كانت ربة البيت تفهم مني ما أقول. إني إذن لشكرت لها رفقتها بي وحدبها عليّ يوم كنت نازلة في بيتها معززة، ولكنت أوصيتها خيرًا بأسرتي، وخاصة زوجنا الصالح الذي لن أنساه.

تُرى سأكون سعيدة في هذا البيت؟ قلت إنني أشعر بأنني سأكون كذلك. وهذه المظاهر التي حولي هي التي أوحت إليّ بهذا الشعور. فمنذ ثلاثة أيام وأنا أذوق الحبّ السمين يوضع أمامي في كرم يبلغ

حـد الإسراف، والمـاء يوضـع في إنـاءٍ نظيـف. أظـن أني ضحيـت أشـياءَ لقـاء أشـياء. ضحّيـت الحيـاة الرحبـة الواسـعة، والمناظـر الريفيـة، وعُوّضـت عنهـا بوفـرة المـاء والطعـام، وبقلـة العنـاء في الوصـول إليهـما، إنهـا نعمـةٌ مـن اللـه. كنـت أريـد أن أقـول أكـثر عـن الربـة القديمـة، ولكنـي أخـشى الزلـل وسـوء الظـن. فـلا تركـن للأيـام المقبلـة أن ترشـدني إلى الأصالـة وتجنبنـي الخطـأ. وليقبـل زوجـي الصالـح وأتـرابي أصـدق عواطفـي ومحبتـي.

٢

هـذا هـو اليـوم العـاشر مـن مجيئـي إلى بيتـي الجديـد. لقـد أردت أن أؤرخ حيـاتي هنـا، لأني شـعرت في أعـماق نفـسي ميـلًا إلى كشـف الـسر عـن تلـك المعاملـة التـي عاملتنـي بهـا ربـة البيـت القديـم. هـل مـن الإنصـاف أن أُنـزع مـن بـين عشـيرتي قـسرًا دون سـبب؟ قلـت لعـل ربتـي أرادت خـيرًا، وأنـا مـن أجـل ذلـك أريـد أن أعـرف سر مـا فعلـت. منـذ جئـت وأنـا أؤرخ مجيئـي بـأن أضـع حصـاة وراء البيـت في صبـاح كل يـوم. واليـوم عندمـا وضعـت الحصـاة العـاشرة انتبهـت إلى أني دخلـت في اليـوم العـاشر، فوقفـت قليـلًا أفكـر في بيتـي القديـم، وفي سر تلـك الفعلـة. الحـق أني فقـدت أعـزاء، وأني لـن أجـد في هـذا البيـت مـن يعزينـي عـن فقدانهـم، نعـم إن زوجنـا هنـا يُظهـر حُبًّـا لي، ويؤثـرني مـن حـين لآخـر في غفلـة عـن زوجاتـه بالحَـبّ السـمين. وقـد لمحـت في عينيـه عطفًـا عـليّ؛ إمـا لأنـه علـم بغربتـي فـأراد أن يواسـيني، وإمـا لأني ضيفـةٌ عليـه، وللضَّيـف مقـام.

بـدأت آلـف البيـت الجديـد وأشـعر بكثـير مـن الهنـاءة والـترف. ولكنـي فقـدت بعـض نشـاطي. يظهـر أن كل ربـح لابـد لـه مـن خسـارة. ولا يمكـن لمخلـوق أن يأخـذ دون أن يُعطـي، ولا أن يُعطـي دون أن يأخـذ. كان الحَـبّ في بيتنـا القديـم دونـه خـرطُ القـداد، وكنـا مـع ذلـك نستشـعر النشـاط والـسرور عندمـا نقـع عـلى حبـةٍ سـمينة. أمـا هنـا فالحـب السـمين تـذروه الأيـدي بسـخاء، ولكنـا نـأكل دون اشـتهاءٍ ولا سرور. إني آسـفةٌ لقـولي هـذا ، فلعلـه نكـرانٌ للجميـل. ولكننـي مهـما قلـت فـإني أطـرح مسـؤوليته عـلى ربتـي القديمـة. ليتهـا اسـتطلعت رأيـي. في الحـق أني كنـت أُوثـر حيـاة الريـف، ولكـن مـن يـدري! فلأولئـك العمالقـة أحيانًـا فهـمٌ وبـصرٌ في الحيـاة، فلعـل ربتـي القديمـة أرادت بي خـيرًا حـين نقلتنـي إلى هـذا البيـت، الـذي أكاد أسـميه مصحًّـا، ومـع ذلـك فلأتريـثنّ ولأريـنّ مـا سـيكون.

٣

حقـاً إن لـكلِّ جديـدٍ لـذة. فـإني أستشـعر اليـوم بكامـل حـواسي لـذة لا حـد لهـا في بيتـي الجديـد. وإني لآسـفةٌ لحرمـاني هـذه اللـذة في تلـك الأيـام الطـوال التـي قضيتهـا في بيتـي القديـم. إنـا نُفطـر ونتغـدى ونتعـشى في سـاعاتٍ منظّمـة، ونتنـزّه بعـد كل أكلـة في أرضٍ نظيفـة، وماؤنـا قـراح يُقـدّم إلينـا في إنـاءٍ جميـل. وغرفـة نومنـا تُنظّـف مرتـين في الأسـبوع. إنهـا لحيـاة منعّمـة هنيئـة.

جلسـت أمـس في الظـل أنظـر في حيـاتي هـذه، وأقابلهـا بحيـاتي القديمـة، فأحمـد اللـه عـلى أن سـاقني إلى مسـكني الجديـد سـوقًا لا خـيرة لي فيـه.

يظهـر أن المخلـوق مسـيّر في هـذا الوجـود، وأنـه يُدفـع إلى الخـير أو الـشر دفعًـا ليـس لـه فيـه رأيٌ ولا حيلـة. ومـا دام الأمـر كذلـك فَلِـمَ يُعنـى المخلـوق بكشـف الغيـب وتعجّـل المصـير. ليعمـل في يومـه مـا يؤمـن لـه الراحـة والـسرور، وليـترك الغـد لبـارئ الخلـق. والطمأنينـة الوحيـدة التـي قـد تقـوم مقـام التطلّـع إلى المسـتقبل هـي عمـل الخـير المحـض، فالخـيّرُ الصالـح هـو الـذي يُنهـي حيـاة يومـه ونفسـه راضيـةٌ أتـم الرضـا عـن عملـه في ذلـك اليـوم.

وفيـما أنـا أفكـر وأحـاور نفـسي إذ جـاء زوجنـا إليّ وأخـذ يُـسرّ في أذني حبـه لي وإعجابـه بي دون سـائر زوجاتـه. ولم يسـعني إلا أن أبادلـه حبًّـا بحـب، وعطفًـا بعطـف، وإعجابًـا بإعجـاب. ووجـود هـذا الـزوج الصالـح العطـوف المحـب هـو مـن سـوق القـدر. ولكنـي، بعـد أن تبادلنـا التحيـات، فكـرت في سـائر زوجاتـه، تُـرى أينعمـن بحبـه كـما أنعـم؟ أيسـمعن منـه كـما أسـمع؟ أم هـن محرومـات الـسرور والبهجـة؟ فـإن كان الأمـر الأول فلابـد أن يكـون زوجـي بارعًـا في إدارة بيتـه ومعاملـة زوجاتـه. قلـت بارعًـا لأني لا أحـب أن أقـول مداهنًـا أو منافقًـا. وإن كان الأمـر الثـاني فـما أشـقاني بشـقائهن ومـا أحزننـي بحزنهـن!

الحـق أني كنـت أوثـر أن أنجـو مـن هـذا المـأزق بـأن أعيـش مـع زوجـي وحيـدة، فـلا أتهمـه ولا أنكـد عيـشي بوجـود سـائر زوجاتـه. ولكـن أليـس هـذا أنانيـة منـي؟ لمَ لا أقنـع قناعـة سـائر الزوجـات؟ ولم أفسـد حيـاتي بهـذه المطامـع البعيـدة؟ لنأخـذ الحيـاة كـما هـي إن شـئنا أن ننعـم بالطمأنينـة، فالحيـاة معقـدة مبهمـة، ولا سـبيل إلى خلقهـا خاليـة مـن هـذا التعقيـد

والإبهام.

يظهر أن المخلوق يُرزق الرضا والقناعة عند مجيئه إلى هذه الحياة، ثم ما يفتأ يوسع من رغباته وآماله حتى يُفسد عليه فطرته الأولى. لا أريد أن أكون من ذلك الطراز، وسأحرص منذ اليوم على أن ألتزم فطرتي الأولى. وبعد أن دارت في نفسي هذه الأفكار بسرعة، ذهبت إلى زوجي وقلت له: أنت حبّةُ القلب ومُنى النفس، ومثلك خليقٌ بأن يُرزق السعادة وأن يحظى بالمحبة والوفاء. التفت إليّ وقال ضاحكًا: وأنتِ كذلك. أظن أنه قالها والبِشر يملأ قلبه. إني أعتقد أن زوجي ساذج، وأن فطرته الأولى لم يشُبها طمع. لعله حُرم هذه التأملات فسلم مما يُعكّر صفوه. أريد أن أقول إنه خيرٌ مني، وإن لم يكن كذلك فهو على الأقل أنعم بالًا وأهدأ نفسًا.

٤

لقد شغفني زوجي حُبًّا، وتملّك كل جارحة من جوارحي. ولو كان لي أن أقتطع من لحمي شطرًا وأطعمه إياه لفعلت. ولو كان لي أن أتخذ من عيني ماء وأسقيه إياه لما توانيت. ولو كان لي أن أكسوه أجمل ثيابي لما ترددت.

ولِمَ لا أفعل كل ذلك؟ إنه لمثال المروءة والكرم والحنوّ والحب. إن وقع على حبة سمينة دعانا إليها، وآثرنا بها دونه. وإن سقط على شربة ماء توقّف واستقدمنا لنبدأ بالشرب قبله. وإن سمع صوتًا مفزعًا انتفخت أوداجُه، وتصلّبت أعصابه، وثار الدم في وجهه، واستعد للقاء

المكروه بنفسه. ولو جاء المكروه من أكبر مخلوق وأقسى معتد لكان موقفه موقف المدافع الذابّ عن حماه. فليت شعري أي مخلوق يقف منا هنا الموقف النبيل؟

وجماله فتنة لا مثيل لها، وصوته سحرٌ لا يشبهه شيء. أود أحيانًا أن ينقلب جسمي كله عينًا واسعة الحدقة لتستمتع بجماله ولتغرف من جلاله ما شاء لها الله أن تفعل. وكم أود أن ينقلب جسمي كله أذنًا واسعةً مرهفة لتتلقف صوته الجميل، ولتستمع إلى أناشيده الرائعة وغنائه العذب. وكم آسف لأني لا أستطيع أن أكون كما أريد. فليُغن المُنى عن بلوغ الغرض. ولتَنُب الأماني عن تحقيق الرجاء.

أما ذلك العُرف القرمزي اللين، الذي يتدلى من مفرقه، فقطعة فنية من صنع خالق مِفَنٍ بارع. وأما ذلك العنق الطويل الوسيم الذي يُشبه غصن المنثور وقت ازدهاره، وأما ذلك الفم الجميل الدقيق الذي أودعه الله أعذب لسان، وأما ذانك الجناحان الملوّنان بأجمل الألوان، وأما تانك الساقان الدقيقتان وتلك الأصابع الزمردية، وتلك الأظافر العاجية، وتلك المشية المتهادية فصنع خالق جميل، أحب الجمال فطبع خلقه بطابعه، وأنشأهم على صورته، فجاءوا أجمل مخلوقات من صنع أجمل خالق.

ما أبهج صباحنا حين يخرج زوجنا من مخدعه ويمشي مشية المدلل بجماله! ويصعد في أعلى مكان، ويفتّن في الإنشاد والشدو في صوتٍ هو السحر الحلال! إنا لنخرج في الصباح ونقف ذاهلات من فرط

ما نشعر به من روعةٍ ونشوة. وكم نتمنى أن يقف الزمان في تلك اللحظة ليستمر ذلك الصوت في نغماته ولياته.

وما يكاد زوجنا يرانا حتى يهرع إلينا محييًا مُؤانسًا مُلاطفًا. فكأننا أحب إليه من غنائه. وهو لو يدري ما في قلوبنا لعلم أن غناءه أحب إلينا من أنفسنا. وبعد أن يحيينا يقودنا لطلب الطعام الشهيّ، وتخيّر المجلس الأنيق.

لقد أردت اليوم أن أداعبه فانفصلت عنه وانتحيت مكانًا قصيًّا لأرى ما يفعل. وبعد لحظة استفقدني فنظر حوله يُمنة ويُسرة فما وجدني. فانتفض ودار دورة حول زوجاته ثم انطلق يبحث عني فما وجدني، لأني كنت مختبئة وراء صخر، فراح يقطع الساحة طولًا وعرضًا، ويدمدم في صوتٍ فيه قسوة المؤتور وحُزن المكلوم، ثم أخذ يعلو الحجارة المبعثرة في الساحة وأنا أتستّر عنه، ولما لم يجدني قفز على سطح المسكن وأخذ يحدّق ببصره في جميع الجهات وينادين بصوتٍ عذبٍ وشدوٍ رقيق، مستفسرًا عن مكاني، وما أصابني. وعندئذٍ انفرطت دمعةٌ من عيني ولم أتمالك أن تحرّكت، فلمح حركتي بعينٍ كأنها جمرةٌ متقدة، ثم انطلق نحوي كالسهم، فنظرت في عينيه وقد جمع الله فيهما الحُبّ كله والحنانَ جميعه، فما تمالكت أن دنوت منه وسرت بجانبه، فعدنا إلى الساحة وعاد إليه بِشرُه ومرحه.

ما أسعدنا وما أطيب أيامنا في هذه الحياة! إن نعمة الحُب هي نعمة النعم. فما أجدرنا أن نقدرها قدرها، ونفيها حقها. لقد خاب

مـن ظـن أن النعمـة في المتـاع أو المسـكن أو الملبـس أو الطعـام أو الـشراب. إن النعمـة هـي الحُـب وحـده، فـإن وُجـد تركـزت جميـع نعـم الدنيـا فيـه، وإن فُقـد عـادت نعـم الدنيـا جميعهـا إلى العـدم.

٥

كان الطقـس البارحـة بـاردًا، والسـماء ملبـدةٌ بالغيـوم، فشـعرنا جميعـاً بانقبـاض لازمنـا طـول النهـار. وفي صبـاح هـذا اليـوم أشرقـت الشـمس فأرسـلت مـع نورهـا الجميـل حـرارة توغّلـت في أجسـامنا فشـاع فيهـا الانـشراح والـسرور.

عجيـبٌ أمـر هـذه الدنيـا. ففـي يـومٍ يمتلكنـا الانقبـاض والضجـر، وفي آخـر يشـيع في قلوبنـا الطـرب والفـرح. تُـرى مـا سر هذيـن الشـعورين المتناقضين؟ فهـل النـور والـدفء وسـيلةٌ مـن وسـائل البهجـة والـسرور؟ وهـل الـبرد والظـلام وسـيلةٌ مـن وسـائل الانقبـاض والضيـق؟ إن كان الأمـر كذلـك فـلا بـدَّ أن يكـون الخالـق قـدّر للخلـق أن ينقبضـوا يومًـا، ليبتهجـوا يومًـا آخـر. ولعلـه أراد أن يُلـوّن الحيـاة بلونـين متناقضـين ليسـتطعموا الـسرور بعـد الابتئـاس والفـرج بعـد الشـدة، واليُسر بعـد العـسر. ولـو كانـت أيـام الخلـق جميعهـا عـلى وتـيرة واحـدة لكانـت حياتهـم ذات لـونٍ واحـدٍ وطعـمٍ واحـد، ولمـا وقعـت لهـم المتناقضـات التـي هـي فتنـة الحيـاة، ومصـدر السـعي والنشـاط. مـا عـلى المخلـوق إذن أن يتـبرم بالحيـاة وهـو عـالمٌ بـأن لعـسره حـدودًا تنتهـي عنـد يُـسره، وأن ليُـسره حـدودًا تنتهـي عنـد عـسره.

لله ما أشقاني! فقد عُدت إلى ما حاولت أن أدفعه عن نفسي من نظرٍ لا طائل تحته. ما الذي يُعنيني من هذه التناقضات وهذه النظرات؟ ألست مخلوقًا مُسيّرًا لا حول له ولا طول؟ ولكن عقلي لجوجٌ في التفكير والتأملات. فلو قُدّر لي أن أُلجمه بلجامِ القدر لآب إلى رشده واستقر حيث قُدّر له أن يستقر.

قلت كانت الشمس اليوم قوية، وخرجنا من مأوانا نلتمس حرارتها ودفئها، وقد جسنا في حلقةٍ يتوسطها زوجنا الصالح، بعد أن مهد كل منا لنفسه مجلسًا يشعر فيه الدفء والراحة. لا أدري لمَ جاء مجلسي مقابلًا لمجلس زوجنا الصالح. أجاء ذلك عن قصدٍ وتدبّر أم جاء عن صدفةٍ وانسياقٍ طبيعي؟ وعلى كل حال فقد هيأ لي مركزي هذا فرصة النظر إلى وجه زوجي، فما رفعت عينيّ عنه، وما انقطع تفكيري فيه. واليوم لأول مرة شعرت بأني محبة مولهة إلى حد الاستخذاء والاستسلام، وأني أرى السعادة في وجوده، والبهجة في لقائه والأنس في جانبه ولا أدري أيوجد بعد هذا السرور دورٌ آخر؟ ماذا وراء هذا الهيام؟ وماذا وراء هذا الوجد؟ كم أود أو أوضع موضع التجربة أولًا لأختبر نفسي نحو هذا الذي أشعر به، وثانيًا لأختبر حبي بالقياس إلى حب سائر زوجاته. أتمنى مثلًا أن يأتي يومٌ قاسٍ فيطلب مني زوجي أن أعطيه دثاري، وأن أنزع ما عليّ فيكون له وحده، أو أن يمرض فيلتمس طبه من دمي، فإن قدّمت له ما طلب كنت صادقة في حبي له غير واهمةٍ ولا مبالغة، وإن امتنعت تبيّن أني كنت في نشوة الحب لا في الحب نفسه.

ومـن يُدرينـا لعـل يومـا يـأتي وتـأتي معـه المحنـة، فأتثبّـت مـن شـعوري. فلأرقـبنّ حـوادث الدهـر في غـير ضجـرٍ ولا احتيـال.

٦

لقـد كاد يومنـا هـذا أن ينتهـي إلى شر، وكاد زوجـي الحبيـب أن يقـع في ورطـة. فقبيـل بـزوغ الشـمس وحـين سـاعة الانطـلاق مـن مأوانـا شـعرت بيد زوجـي تهـز يـدي برفـق، فاسـتيقظت فـورًا وفتحـت عينـي، فـإذا ابتسـامةٌ سـاحرةٌ عـلى فمـه. فحدقـت إليـه مسـتطلعة ولكنـه لم ينطـق. فعـدت إلى إغفـاءة الصبـح. وبعـد ثـوانٍ أعـاد زوجـي حركتـه الأولى، ففتحـت عينـي ورأيتـه متأهبًـا للخـروج فنظـرت إلى فمـه أتوقـع كلمـة منـه فلـم يـزد أن حـرّك رأسـه أنـت اتبعينـي. عجبـت لحالـه، وكـدت أثبـت في مـكاني لـولا أني فطنـت إلى أنـه قـد يُـسرّ أمـرًا. فتبعتـه في خفـة إلى خـارج المـأوى. وهنـاك توقّـف لحظـة وألقـى في أذني هـذه الكلمـة: اتبعينـي أيتهـا الحبيبـة. ولـو بلغـت إرادتي أقـصى حدهـا مـن القـوة والنفـاذ لمـا اسـتطعت أن أرد لـه أمـرًا.

سـار وسرت معـه، فأخـذ يتخطـى الحجـارة المبعـثرة في السـاحة باحثًـا عـن بقعـةٍ مرتفعـةٍ يجلـس عليهـا فلـم يجـد مكانًـا خـيرًا مـن جـذع شـجرة نضـدت حولهـا حجـارة كبـيرة، فجلـس وجلسـت إلى جانبـه متجهـين نحـو مـشرق الشـمس.

قـال لي في صـوتٍ عـذب: لعلـك تعجبـين لخروجـي بـك عـلى غـير عادتنـا في هـذا الصبـاح! قلـت: نعـم، وحياتـك! قـال: أريـد أن أخلـو لحظـات أبثـك

فيها لواعج حبي، فقلت له: لقد وقع ذلك منك قبل الآن، وإن لم تنقله إلي بصورة أصوات، وإني ما شككت قط في حبك لي وعطفك عليّ. قال: ما يزيدني كلامك هذا إلا حُبًّا وإعجابًا. ولكني أود أن أفصح لكِ عما لا سبيل إلى الإفصاح عنه في غير انفراد. أنتِ ترين سائر زوجاتي، وترين حبهن لي وحبي لهن، وما أملك حق التفريق بينهن، وما كان لي أو أوثرك عليهن، ولكن لا حيلة لي فيما أشعر به، فأنتِ تحتلين المقام الأول في قلبي، ومنذ جئتِ وأنتِ تفتنينني بحسن عشرتك، ورقة حاشيتك، ورزانة عقلك، وعذوبة حديثك، وتكلّفك إرضائي بجميع الوسائل وإني لأعلم أنك لو تقدرين على إعطائي جزءًا من لحمك لفعلتِ. قلت: يا حبيبي، أنت أهلٌ لهذا، فقاطعني قائلا: ولا أود أو أوهمك أني لا أحب سائر زوجاتي، فإنهن محبباتٌ إلي، عزيزاتٌ عليّ، ولكن حبك نوعٌ آخر. الحق أني لا أعرف كيف أعبّر عما أشعر به نحوك. ربما يحسن بي أن أقول إنكِ أقدر سائر زوجاتي على إرضائي والتحكّم بعواطفي. قلت له: يا حبيبي الحب واحد. وجميع زوجاتك، وأنا معهن، يُحببنك حُبًّا متساويًا. وما أحسبك إلا محبًّا لنا جميعًا على السواء. وما تشعر به الآن قد يكون مجاملة أو ظرفًا دُفعت إليه لسببٍ من الأسباب. فالحب إن كان من الأعماق لا يصح أن يوضع في مراتب. فهو من مصدرٍ واحد وإلى غايةٍ واحدة. وأنت لنا جميعًا بقلبك وعواطفك، وما رأيناك تؤثر إحدانا على الأخريات. وحبك لنا مصدره قلبك الذي لا يجوز عليه التقسيم. فابتسم وقال: ومن أين لزوجاتي مثل هذا المنطق العذب؟ قلت، وطرفي منكسر: إنك يا حبيبي ينبوع الحكمة. فقال: ومن أين لهن مثل ذوقك وحصافتك؟ وفيم أهمّ بالجواب إذ

حركة نتبعث من ناحية المأوى، وإذ الصديقات متجمعات قرب الباب ينظرن إلينا في دهشة. فتركت زوجي وأسرعت إليهن أحييهن وأسألهن عن حالهن. فتضاحكن، وقالت إحداهن: أراقك بزوغ الفجر؟ وقالت ثانية: أتجدين في هواء الصباح المبكر رقة وعذوبة؟ فقلت مستحيية: يا صديقاتي، اللذة لا تكون إلا معكن، فالصباح والهواء والطعام والماء جميعها من مادة واحدة لا تختلف، ولكنها تصبح ذوات طعمٍ خاصٍّ إن اقترنت بصحبتكن وحبكن، فأنتن مصدر اللذة والمتعة. فقالت الأولى: وزوجنا؟ فوقعت عليّ هذه الكلمة كالصاعقة، ولم يرد إليَّ رشدي إلَّا قدوم زوجنا، فخفضت من صوتي وخفضن من أصواتهن، وتظاهرت وتظاهرن بالبشر والسرور. ومن يستطيع أن يرفع طرفه في ذلك الوجه المشرق؟ إن أقصى ما تبلغه عيوننا تان الساقان الرقيقتان الأنيقتان.

جاء زوجنا وسار أمامنا يلتمس الطعام والشراب والمجلس الأنيق، فتبعناه. وهل يقابل مثل ذلك العمل إلا بالاستسلام؟ بمَ تُقابل من يؤثرك على نفسه بالطعام والشراب، ومن يفديك بروحه حين يعزّ الفداء؟

لقد كانت ورطة في الصباح، ولا أدري كيف تنتهي.

٧

تمرّ الأيام وتنقضي الأعمار، والمخلوق غافلٌ كأنه ثمل، لا يعي ما يسمع ولا يرى ما يُبصر. وفي حالاتٍ كأنها لحظات يستيقظ من غفلته ويُصبح مرهف الحس، حديد البصر، قوي السمع، تتجمع فيه جميع القوى، ويحسّ ما حوله حسًّا عنيفًا. فكأنه قد ادَّخَر في إبان غفلته جميع حواسه ليطلقها في تلك اللحظات القليلات.

كنا اليوم في حالة من هذه الحالات التي تنتاب المخلوق. فقد أقام زوجنا حفلة رائعة قضينا فيها ساعاتٍ نلهو بالرقص والشراب والغناء. كان زوجنا في هذه الحفلة مطلقًا لنفسه العنان يُمعن في الشراب واللهو كأنه يودع الدنيا وداعه الأخير. فأكل أكل النهم، وشرِب شراب الظمآن، ورقص رقص الشَّياطين. ولم نكن نحن جميعًا أقل منه تهالكًا على اللذات، فشربنا حتى دبت النشوة في جميع أطرافنا، وأكلنا حتى ما وجدنا مكانًا لمزيد، ورقصنا حتى خدرت أرجلنا.

كنت أحسب اللذة الجسمية تنتهي عند حد. وأن معدة المخلوق لا تتجاوز حد الشبع من طعامٍ أو شراب. ولكني بعد أن أكلت ما أكلت، وشربت ما شربت صرت أعتقد أن طاقة المخلوق على الطعام والشراب أقوى مما يظن. كنت أعجب أين يذهب الطعام والشراب اللذان إن وزنتهما زاد وزنهما عن وزن جسمي. فيا للعجب كيف يدخل إلى جسمي ما يُساوي جسمي!

كان الشراب يلعب برؤوسنا، فينقلنا إلى عالم الأحلام. فما نرى إلا أرواحًا كالملائكة تُحيط بنا وتأخذ بأيدينا مراقصة مضاحكة في مؤانسة لا حد لها. وكانت الأرواح تتراءى لنا كأنها متزينة بأحسن زينة، وتظهر من أجسامنا ما يسلب عقولنا ويدفعنا إلى الإمعان في اللهو والاستمتاع.

أما زوجنا الصالح فقد انقلب في أعيننا إلى روح من تلك الأرواح. وتراءى لنا كأنه آخاها ودخل في زمرتها. فنزعت عليه ألبستها الجميلة. وما امتاز بأعيننا إلا بوجهه المتوج بذلك العرف القرمزي. أما نحن - زوجاته - فكنا بين أيدي تلك الأرواح كالدُّمى بين أيدي الأطفال يجرونها كيف شاؤوا، وحيث شاؤوا.

وشعرنا بأن تلك الهيبة التي يتحلى بها زوجنا قد انقلبت إلى ألفة كالتي تكون بين طفلين، وأن تلك الحشمة والكلفة اللتين نصنعهما في حياتنا قد انقلبتا إلى ألفةٍ وخلطة بالغتين أقصى حدودهما.

ما أذكر أنني شعرت بكامل وعيي وإحساسي كما شعرت اليوم. فكأني نمت دهرًا واستيقظت ساعةً وأنا على أحد ما أكون من النشاط ودقة الحس. كنت أشعر أني مخلوقٌ جديد رُزق إحساس جيلٍ من الخلق، وقوة عملاقٍ من الجن، وأني أستطيع أن أسيّر الأيام ببناني.

ظللنا على هذه الحال من الصباح حتى العصر. وما منا إلا من يتوقع أن يواصل يومه بليله إلى آخر العمر. فمن يصحو صحونا هذا، ومن يستمتع استمتاعنا هذا، وينتقل بروحه إلى عالم الأرواح، ثم يهون عليه أن تنتهي هذه الحالة في وقتٍ قريبٍ أو بعيد؟ ولكن فيما نحن في

هـذه النشـوة هبـط علينـا عـدوٌّ مخيـف. لا أدري مـن أيـن جـاء، وكيـف اسـتطاع أن يجـد سـبيله إلى عـالم الأرواح الـذي كنـا فيـه. فـما رآه زوجنـا حتـى انتفـض انتفاضـةً شـديدة، ووقـف يُقابلـه وجهًـا لوجـه. ويظهـر أن ذلـك العـدو كان يرقـب مـا نحـن فيـه مـن لهـوٍ وشراب، وكان يحسـب أننـا نستسـلم لـه، ولا نجـد في أنفسـنا مـا يـرد عدوانـه. ولكـن زوجنـا ظهـر في حالـة ترعـب الرعـب، وكأن جميـع الأرواح قـد اندمجـت في نفسـه، فانقـض عـلى العـدو مصـاولًا مقاتـلًا. أمـا نحـن فلـم نسـتطع حـراكًا. فقـد تولانـا الذعـر، وراعنـا العـدوان الطـارئ. فجلسـنا نشـهد الـصراع بـين خصمـين جباريـن. اسـتمر القتـال طويـلًا، وكان زوجنـا يعلـو خصمـه تـارة، ويعلـوه خصمـه تـارة أخـرى. وكان الـدم يتفجـر مـن جسـمه أشـد مـا يكـون حمـرة. لقـد كان الـصراع في حالـة توهمنـا أن زوجنـا هالـكٌ لا محالـة. فقـد كان العـدو أقـسى قلبًـا وأشـد عنفًـا وأطـول باعًـا مـن زوجنـا. ولكـن قوةً مـن الله حلّـت في زوجنـا في لحظـة، فقـرع رأس خصمـه قرعـةً أفقدتـه رُشـده فقمنـا إليـه مهلـلات مهنئـات. فـزادت الحميـة في نفسـه وانقـض عـلى خصمـه انقضاضـةً أفقدتـه الحيـاة. وطُـرح الخصـم المعتـدي في خـارج الجـدار. عـاد زوجنـا إلينـا وعُدنـا نحـن إلى أنفسـنا نتفقدهـا ونلتمـس العـودة إلى مـا كنـا فيـه. ولكـن مـا أبعـد مـا طلبنـا. فقـد عـادت نشـوتنا أشـبه بحلـم، وعـادت نفوسـنا إلى حالتهـا الأولى. وفي الحـق أننـا لم نفكّـر طويـلًا فيـما كنـا فيـه. فقـد صرفَنـا عـن ذلـك الجـروح البالغـة التـي أصابـت زوجنـا. ولم تـأْلُ كل واحـدة منـا بـذل الجهـد، ومـا فـوق الجهـد في تضميـد جراحـه ومواسـاته. ولم نجـد خـيرًا مـن أن ننتقـل جميعًـا إلى مأوانـا نسـتعجل الليـل.

كنا من الصباح إلى العصر في حالة وعيٍ عجيبة. وكنا نحسب أن زوال تلك الحالة من أبعد الأمور. فينبغي لنا على الأقل وقتٌ يُعادل ذلك الوقت الذي لهونا فيه كي نسترد غيبوبتنا التي تلازمنا في أيامنا ولكن لم يمر أكثر من نصف ساعة حتى خرجنا من طور اليقظة إلى طور التخدير.

كانت حفلة اليوم حالة من تلك الحالات القليلة التي يستيقظ فيها المخلوق من غفوته، ويعيش بكامل حواسه. أفنعود إلى مثلها يا ترى؟

٨

جلست أفكر اليوم بعد تلك الحفلة في مصيرنا لو قُدّر لذلك العدو أن يصرع زوجنا. لاشك في أننا لا نستطيع أن نقاومه ولا سبيل لنا سوى الاستخذاء والاستسلام. قلت في نفسي: تُرى ألا يخطر مثل هذا الخاطر في بال زوجنا؟ ألا يقدّر ما يكون عليه حالنا بعد مصرعه؟ وإن فكر فماذا أعد لنا من وسائل الدفاع؟ أغلب الظن أنه لم يُفكّر في شيء من هذا، لأنه لو فكّر لأطلعنا على ما هيّأ من عدة.

لقد قادني هذا الأمر إلى الطغيان في الفكر، وإلى الإسراف في الطموح. ولا عجب في ذلك فالقضية قضية موت أو حياة. لقد حملني تفكيري على وجوب التسلّح بمثل القوة التي يتسلّح بها زوجنا. يجب أن نتخذ العدة لندافع عن أنفسنا في وقت الشدة، وأن لا نترك تحت رحمة الدهر القلب. وما يمنع الأنثى أن تكون كالذكر في مقارعة الخطوب وملاقاة الأهوال، وعراك الأزمات؟ إلى متى نظلّ عالة على الذكر نحمّله

مسـؤولياتنا ومتاعبنـا؟ نعـم إن عليـه مسـؤوليةً تعـادل مـا ركـب اللـه فيـه مـن قـوةٍ وبـأس، ولكـن علينـا نحـن أيضًـا مسـؤولية تعـادل مـا أودع اللـه فينـا مـن حركـةٍ وحيـاة. فيجـب ألَّا نقعـد، عنـد المُلـمّات، جزعـات، فزعـات، مستسـلمات مخـذولات. يجـب أن نكـون للذكـر مصـدر قـوة لا مصدر ضعـف. وإذا لم يركـب اللـه فـوق مفـرق الأنثـى عُرفًـا كعـرف الذكـر فقـد ركّـب فيهـا عقـلًا كعقلـه، ونفسًـا كنفسـه، وقلبًـا كقلبـه. وهـي إن لم تسـتطع أن تنافسـه وتجاريـه، فإنهـا تسـتطيع أن تكـوّن مـن نفسـها قـوةً تسـتقل بهـا عنـه في المُلـمّات.

لـو كان الذكـر يـدوم للأنثـى دوام العمـر، ولـو كنـا نضمـن لـه السـلامة والعافيـة والظفـر في جميـع المُلـمّات، لمـا حـق لنـا أن ننفـذ بآمالنـا إلى هـذا الحـد. ولكـن لا الدهـر مأمـون، ولا الأحـداث مضمونـة، ولا الذكـر مكفـول العمـر. ونحـن بـين أمريـن: إمـا أن نعيـش عيشـة الأيـم والبـؤس والشـقاء عنـد فقـد ذكورنـا، وإمـا أن نسـلّح أنفسـنا ضـد العـوادي والخطـوب منـذ نشـأتنا، وفي أيـام صبانـا. فنخفـف مـن قسـوة الدهـر، ونقلّـم مـن أظفـار المصائـب.

حملتنـي تلـك الحادثـة المروعـة في يـوم الحفلـة عـلى إرسـال الفكـر في مثـل هـذ التأمـلات. وأظـن أني شـططت. فليـس لي أن أُخلـق مـن جديـد، وليـس لي أن أسـتدرك مـا فـات. ولكنـي أملـك التمنّـي والتعـزى. ولمـن يـأتي بعـدي مـن ذوات العقـل النـيّر والبصـيرة الواعيـة، أن يتجـاوزن حـدود الأمـاني إلى حـدود العمـل.

٩

قضينا أسبوعًا كاملًا حول مرقد زوجنا الصالح نعالجه ونضمّد جراحه التي أصابته في ذلك الصراع. وكان زوجنا في أثناء هذا الأسبوع منحرف المزاج، كثير التألم والتوجّع من جروحه. وكان وجهه تعلوه صفرة، وعرفه القرمزي مسترخيًا قاتم اللون. وكان أحيانًا يرفع صوته بالأنين والشكوى. نظرت في حاله وعجبت لخَوَره وضعفه بعد تلك القوة وتلك العزيمة اللتين كان يُبديهما قبل تلك الواقعة. كنت أرى زوجنا في حالٍ من البأس في الأيام السابقة توهمني أنه كفيٌّ لمصارعة الدهر، ومصاولة الخطوب، ومقارعة الأحداث. فإذا به بعد تلك الواقعة يصبح في حالة أضعف المخلوقات. تُرى أتغيّرت روحه؟ أم تغيّر جسمه؟ أم ماذا أصابه؟ وهل المخلوق من الهوان والضِّعة بحيث ينقلب اعتداده بقوته، وخيلاؤه، في أيامٍ قلائل، إلى انكسارٍ وتراخٍ وخذلان؟

لقد أتاح لي هذا الأسبوع أن أبلو زوجاته بلاء ما تيسر لي في أثناء عشرتنا السابقة. وكأن زوجنا كان سِمْطَ العِقْد، فما انقطع حتى انفرطت الحبات، وذهبت كل حبة في سبيلها. أو هو أشبه بعمود البيت سقط فتداعت الجوانب إلى السقوط. ولكن هذا العمود في نفسه كسائر جوانب البيت قوةً وضعفًا. فهو في مرضه يئن كما يئن كل مريض، ويتألم كما يتألم كل مكلوم.

لا أستطيع أن أقول إن إحدى زوجاته تهاونت في أمره، وقصرت في أداء واجبها نحوه. أو أنني فُقتُ زوجاته حدبًا عليه ورفقًا به. ولكني

شـعرت بأنَّـا لم نكـن متسـاوياتٍ في شـعورنا. سـمعت إحـدى زوجاتـه – وهـي صاحبـة تلـك الكلمـة في ذلـك الصبـاح الـذي خلـوت فيـه بزوجـي دون سـائر زوجاتـه – سـمعتها تقـول: عـلى الزوجـة التـي آثرهـا زوجهـا بحبـه أن تقـوم بالـدور الأول في معالجتـه، وعـلى تلـك الزوجـة التـي فتنـت زوجهـا واسـتأثرت بعواطفـه دوننـا أن تشـاركه اليـوم في آلامـه. أمـا نحـن فـما علينـا مـن ذلـك كلـه. نعـم، إنـا نـؤدي واجبنـا نحـو زوجنـا العزيـز، فذلـك الواجـب الـذي فرضـه علينـا الديـن والخلـق، ولكـن لا نسـتطيع أن نتكلّـف مـا فـوق طاقتنـا. لقـد خُلـق ليلنـا للنـوم ونهارنـا للعمـل، فـإذا جـاء الليـل اتخذنـاه لنـا لباسًـا، ومـا اسـتطعنا أن ندفعـه عنـا. وحـين يـأتي النهـار نتفـرّع لواجباتنـا دأبنـا كل يـوم! واللـه لقـد كانـت كل كلمـة مـن هـذه الكلـمات التـي تفوّهـت بهـا تـربي أشـدّ عـليّ مـن وقـع السـهام، لسـت أفتخـر إذ أقـول إني مـا شـعرت بالنـوم إلا لمامًـا في أثنـاء تمريـض زوجـي. ومـن أيـن لجفنـيّ التغميـض وجفنـا ذلـك الـزوج الصالـح مفتّحتـان. ومـع ذلـك فلسـت بزاعمـة أن تلـك الـترب الطيبـة كانـت أقـل منـي عنايـة بزوجنـا، ولكنـي أظـن أن قلـب المخلـوق لا يسـعه أن يخلـو مـن الغـيرة. وأرى مـن الإنصـاف أن أذكـر موقـف إحـدى أتـرابي الطيّـب. فقـد كانـت تبالـغ في خدمـة زوجنـا وتُخـلي نفسـها مـن كل شـغلٍ سـواه. فـلا يطلـب حاجـةً إلا تُبـادر إليـه بهـا، كأنهـا أنشـطنا حركـة، وأسرعنـا خطـوًا وهـي في الواقـع أكبرنـا سـنًّا، وأضعفنـا جسـمًا. ولسـت أعجـب لموقـف تلـك الـترب، فإنهـا في نظـري مثـال الاتـزان والكـمال، وحسـن الخلـق وطيـب النّجـار. وهـي لا شـك نبيهـة ذكيـة الفـؤاد دقيقـة الحـس ولابـد أن تكـون قـد أحسّـت في ذلـك الصبـاح الـذي خلـوت بـه بزوجـي مـا أحـسّ بـه سـائر الزوجـات،

ومع ذلك لم تُبد ما يُشعر بالانحراف عن مسلكها، لا في أيام مرض زوجها ولا قبله. أما الترب التي أتورّع عن وصفها بالتحديد خشية أن أنال من كرامتها فقد كانت تُشغل عن زوجها من حين لآخر بطعامها وشرابها. فإذا جاء وقت الطعام لم تُبالٍ بما حولها. وكانت الدنيا عندها تسير سيرها المألوف، ولو وقعت في تلك الساعة صاعقة على غيرها لما نفضت يدها من طعامها. إنني لا أتحامل على هذه الترب ولا أسلقها بلساني، فلقد عرفت فيها نهمها وشرهها قبل هذا الأسبوع. وما دامت مسوقة بطبيعتها فلا جُناح عليها.

إني إذ أمارس هذه الحالات وأبلو هذه المواقف أُحمل على درس طبائع المخلوقات والحكم عليها. فمن المخلوقات من ركب فيه الحسد والغيرة، ومنهم من ركب فيه الشهوة العنيفة للذة من الذات، يُنفق في طلبها ما يملك. ومنهم من وُهب الحكمة والسداد والاعتدال فلزمها في حياته جميعها، ومنهم من رُزق الحُب والإخلاص والتضحية فشارك أصدقاءه في بؤسهم ونعيمهم، وضرائهم وسرائهم على السواء.

إن كان هناك شيءٌ يُبْهم عليّ ويستغلق فهو سر هذا الاختلاف بين المخلوقات. وما أدري إلى أي حد يُسأل المخلوق عن خلقه وطبيعته، ما دام بريئًا من كل قدرةٍ على تكوين نفسه بنفسه، وما دام مدفوعًا إلى ما ركب فيه دفعًا لا قدرة له عليه. ولكن من أين للمخلوق سعة الصدر، ورحابة الفكر وسموّ النظر، التي تحمله على أن يُبرّر موقف كل مخلوق في الموقف الذي يتّخذه. تلك لا شك سجايا ينفرد بها الأقلّون. ومن رُزقها رُزق السعادة والطمأنينة وراحة الضمير.

نحـن جميعًـا زوجـات متسـاويات في الحقـوق والواجبـات، وموقفنـا نحـو زوجنـا واحـد. ومـع ذلـك فقـد اختلفـت طبائعنـا، وتباينـت أهواؤنـا، وإن اتفقنـا جميعًـا في الظاهـر عـلى وحـدة الشـعور نحـو زوجنـا. لقـد قلـت إننـا نتسـاوى في حُبـه وإجلالـه، وأرجـو أن أكـون مصيبـة في قـولي. وإلا فويـلٌ للمخلـوق مـن المخلـوق، ويـا لشـقاء زوجنـا بنـا!

١٠

ضـاق صـدري بمـا رأيـت مـن أتـرابي اللـواتي وصفـت طبائعهـن فيـما سـبق، ويظهـر أن تلـك الطبائـع بـدت عـلى أوضـح صـورة في أثنـاء مـرض زوجنـا. فـتربي الغيـورة تمـادت في غيرتهـا، وتـربي النهمـة الأكـول أسرفـت في معالجـة معدتهـا، وبالغـت في إظهـار أنانيتهـا. وهكـذا أخـذت كل تـرب تُطلـق لطبعهـا العنـان.

وأظـن أن مزاجـي صـار حـادًّا في هـذه الفـترة، فلـم أطـق السـكوت والتجمّـل بالصـبر. فأسـمعتهن مـا لا يسرّهـن. وعندئـذٍ توسّـطت تلـك الـترب العاقلـة الرزينـة بيننـا، وأخذتنـي جانبًـا وشرعـت تُخفّـف الخطـب عـليَّ قائلـة: ليـس هنـاك مـا يدعـوك إلى التـبرّم، وأنـت مـن عُرِفـتِ بسـعة صـدرٍ وبُعـد نظـر، وحسـن كياسـة. فقلـت لهـا: أليـس يؤلمـك كـما يؤلمنـي أن تـرى كل زوجـة تُمعـن في شـهوتها دون اعتبـار مصلحـة المجمـوع؟ ألسـنا هنـا متكاتفـات متضافـرات عـلى تحقيـق سـعادة الأسرة بأكملهـا؟ ألا يجـب عـلى الفـرد أن يَضحّـي مـن مطامعـه في سـبيل تحقيـق الوحـدة والانسـجام والسـرور للجميـع؟ قالـت: ولكنـك تعلمـين أن الطبائـع في المخلوقـات هـي مـن صنـع

الخالـق، وليـس للمخلـوق حريـة تكويـن طبائعـه. ومـن جهـةٍ أخـرى مـن ذا الـذي تصفـو مشـاربه؟ ومـن ذا الـذي يُقـر بعيوبـه؟ وأغلـب الظـن أن أترابـك يـرون فيـك مـا ترين فيهـن. ولـو سـألت إحداهـن عـن رأيهـا فيـك لوجـدت مجـالًا للقـول ذا سـعة كـما تجديـن. قلـت لهـا: إننـي لا أدعـي الكـمال لنفـسي، ولا أبرئهـا مـن مسـتقبح الطبائـع، وأنـا مسـتعدة أن أسـمع رأي غـيري فيّ، وأن أروّض نفـسي عـلى مـا يشـتهيه إن كان في هـذه الرياضـة مـا يحقـق السـعادة لجميـع الأسرة. وأنـا أحكمـك في أمرنـا وأطلـق لـك حـق الفصـل فيـما يزعمـون. قالـت: أشـهد إني لأرى فيـكِ الاعتـدال والحصافـة والنّبـل، ولسـتِ في حاجـة إلى أن تحكمينـي، فليـس هنـاك موجـب لتكويـن قضيـة يحكـم فيهـا قـاض. قلـت: إنـك تتكلمـين مسـتوحية صفاتك وسـجاياك، ومـا أرى النعـوت التـي خلعتهـا عـليّ إلا نعوتًـا لـكِ أنـتِ. فدعينـا مـن تبـادل المـدح ولنشـترك معًـا في النظـر في معالجـة هـذه الطبائـع، عسـانا نصـل إلى تحقيـق الوئـام والتعـاون عـلى أحسـن حـال. وأنـت يعنيـك هـذا الأمـر كـما يعنينـي فلسـتِ بغريبـةٍ عنـا، ولسـتِ بقـادرةٍ عـلى أن تنفـضي يـدك مـما يجـري بيننـا. وإذا وُفّقنـا إلى الوصـول إلى عـلاجٍ حاسـم فسـينالك مـا يهمـك مـن السـعادة التـي ننشـدها، وأنـتِ بعـد مسـؤولة عـن تحقيـق السـعادة لـلأسرة بكاملهـا لأنـك إحـدى أفرادهـا العاقـلات، ومسـؤولية العاقـل فـوق مسـؤولية الجاهـل. قالـت: نِعْـمَ مـا تقولـين. فهـاتي رأيـك. قلـت: لا أريـد أن أعـرض عليـكِ رأيًـا، وإنمـا أريـد أن أحـاورك رجـاء أن نصـل معًـا إلى نتيجـةٍ فاصلـة. ألسـت تريـن أن جميـع الطبائـع ناتجـةٌ عـن طبيعـة الحيـاة التـي يحياهـا الخلـق. فالحسـد مثـلًا ناتـجٌ عـن حرمـان الحاسـد مـن النعمـة التـي يتمتّـع بهـا المحسـود، والكـذب ناتـج عـن حرمـان الـكاذب مـن الوسـائل

التي تُبلغه ما يريد. والنفاق ناتج عن خوف المنافق من سطوة من يُنافق. والشره ناتج عن خوف الشّرِه من فوات ما يشتهيه من طعامٍ أو شراب. والخيانة ناتجةٌ عن فقدان التساوي بين الناس، واستئثار بعضهم بالسلطان دون بعض، ورغبة الخائن في تحدّي تلك السلطة والقضاء عليها أو مخادعتها مهما كلفه الأمر. وأستطيع أن أسرد عليك سائر العيوب والطبائع، وأن أثبت لك أنها ناتجة جميعها عن اختلالٍ في النظام، أو طغيانٍ في الحكم أو استبدادٍ بالرزق، أو استئثارٍ بالخيرات. فقالت: أتريدين أن تزعُمي أن من اليسير محو الطمع والظلم والإثرة والفساد وما إلى ذلك من العالم؟ أتريدين أن تفعلي أنتِ، أنت نفسك ما عجز أحكم الحكماء عن فعله. قلت: أنت تتناولين البحث من قاعدة الهرم فتتناولين العالم أجمع. وأنا أحب أن أبدأ من رأس الهرم فأتناول هذه الأسرة التي تخضع لمزاج واحد وبيئةٍ واحدة، وحياةٍ واحدة. ولست أقصد أن أظهر لك بمظهر الأناني الذي لا يعنيه من المخلوقات سوى بضعة أفراد، ولكني أريد أولًا أن نبدأ من نقطة ثم نتوسّع إلى أن نبلغ قاعدة الهرم. وثانيًا ليس ما يمنع المخلوقات جميعًا أن تنظر في حياتها على النحو الذي ننظر نحن فيه، وإن كان هناك رأيٌ صالح أو فكرةٌ نبيلة فليس ما يمنع انتشارها بين الناس جميعًا. قالت: إني أعترف لكٍ بحسن القصد، ونُبل الغرض ولا أريد من مساجلتي إياكِ مقاومةً لآرائك. ولكني أسألك في أي أسرة تحققت مُثُلك هذه. فلست أعرف بيئة خلت من أثرٍ من آثار الطبائع البشرية، أو لونٍ من ألوان المساوئ الاجتماعية. ولو كان مجال تحقيق المثل العليا يسرًا لوجب أن نرى نتائجه في بيئة من بيئات الخلق في قديم أو حديث. ومن جهةٍ

ثانيـة يـتراءى لي أنـك أخفقـت في تطبيـق مبادئـك في أسرة صغـيرة قليلـة الأعضـاء كأسرتنـا هـذه. قلـت: أفهـم منـكِ أنـك متفقـةٌ معـي عـلى عـلاج المبـادئ التـي ذكرتهـا، وأنـك مختلفـةٌ معـي في تطبيقهـا. فـإن كان الأمـر كذلـك فـإني أعـدك أن أبـذل جميـع قـواي في تنفيـذ هـذه المبـادئ بنفـسي، وفي حمـل مـن يلـوذ بي عـلى تطبيقهـا، وفي إقنـاع مـن لا يشـايعني بصحتهـا، وناصحًـا ومرشـدًا في حيـاتي الجديـدة. قـد أكـون مسرفـةً في حسـن الظـن، وقـد أكـون مبالغـةً في اعتـدادي بمواهبـي وكفايتـي. وقـد تشـكّين أنـتِ في إمـكان تحقيـق مبـادئي، ولكنـي أعتقـد أنـكِ واثقـة بسـموّ هـذه المبـادئ، وبرغبتـي الصادقـة في تحقيقهـا، ليـس لمصلحتـي ولكـن لمصلحـة المجمـوع. قالـت: إني أؤازرك في كل مـا تقصديـن منـه تحقيـق سـعادة المجمـوع، وحبـي لـك يمنعنـي مـن أن أحـول بينـك وبـين تجربـة قـد تُشـقيك أو تُرديـك. ومـا دمـتِ توجبـين عـلي حـق النصـح والإرشـاد فـإني أبـادر بإسـداء نصحـي إليـك بـأن تتريّثـي فيـما أنـت قادمـة عليـه، وأن تسـتعيني بالرفـق والتـؤدة كي لا تفقـدي عقلـك وأملـك في وقـتٍ واحـد.

ومـا كان ينقـضي هـذا الحديـث حتـى سـمعت تـربي الغيـور تصيـح قائلـة: كفاكـما اسـتمتاعًا بالراحـة والسـمر، ونحـن نـؤدي عنكـما واجباتكـما. هيـا أقبـلا فليـس الهـرب وسـيلةً صالحـةً لتجنّـب المسـئولية. فابتسـمت تـربي ابتسـامة بيّنـت المدلـول وقالـت: هيـا فقـد بـدأ العمـل! ولا أريـد أن أكلّفـك سـوى أمـرٍ واحـد، وهـو أن تكـوني لي عونًـا.

١١

منذ اليوم الذي صمّمت فيه على تنفيذ مبادئي التي رسمتها لمعالجة أخلاق أترابي وأنا في جهادٍ عنيفٍ معه، فقد أخذن يُظهرن عداوتهن لي بلا ترفّق، وكأن عداوتهن كانت نائمة فأيقظتها بيدي. ومن أغرب ما بُليت من أخلاقهن أنهن اتهمنني بما أظهرن من عيوبهن. فكنت إذا قلت للحسودة: مالك تنفُسين عليّ حب زوجي لي وحبي له، وأنتِ تعلمين أني ما تكلّفت الحيلولة بين قلبه وقلبك، بل ليس في مقدور إنسان أن يحول بين قلبين. تقول لي: أنتِ الحسودة. وحسدك هو الذي صوّر لك هذه الآفة فرميتيني بها. وكنت إذا قلت للأكولة: إن الإسراف في الأكل شرهٌ وخيمُ العواقب، وأنتِ في غنى عنه ما دمنا جميعًا ممتعين بنعم الله على السواء. قالت: والله ما عرفت النهم إلا فيكِ، وما عرفت وصفه إلا منك. وإذا قلت للمنافقة: مالك وللمواربة والرياء والنفاق، وأنت تعلمين أن ظاهرنا كباطننا، وباطننا كظاهرنا؟ تقول لي: إنك لترميننني بدائك، وتتسترين بالصراحة والإخلاص كي لا ينكشف أمرك. وإذا قلت للكاذبة: ليس ما يحملك على انتحال الكذب، لأنَّكِ بعيدة عن المؤاخذة، إن عثرتِ أو أخطأتِ، ولا يمكن أن تستري ذنوبك بالأكاذيب، قالت: على لسانك نبت الكذب، وما أعرف أني زللت حتى أستر زلّتي بالكذب.

ويعلم الله كم حاولت أن أترفّق بأترابي، وأن أبالغ في مرضاتهن وأن أصف عيوبهن ألطف وصف. ولكن أنّى للرفق أن يُصيب وقد أخطأ النصح، وذلّ الإخلاص عند هؤلاء الأتراب؟

كنت أتوهم أنهم يشعرن بالبلسم الذي أضعه على جروحهن، فإذا هن يرين ذلك البلسم فُلفُلًا تُحشى به جروحهن.

ولما رأين مضاء عزمي، وقوة تصميمي على ملاحقتهن، غير آبهةٍ بما يقلن، تذرعن بشر الوسائل في مقاومتي، فعقدن بينهن حلفًا شططن فيه أي شطط، فتعاهدن على مخالفة رأيي في كل ما أقول سواء أحقًا كان أم باطلًا، فإذا جاء وقت الطعام وقلت له: تفضلن للطعام فقد حان وقته، قلن مستهزئات: يا للشره! لقد صوّر لها شرهها أن الزمن أسرع في خطاه، وما بعد هذا الشره شره. وإذا قلت لهن: الهواء بارد فالزمن مأواكنّ، ولا تتعرضن لشرّه، قلن: كذبتِ وقد أردتِ أن تستأثري بالهواء العليل دوننا. وتعاهدن على أن يُسخّفن آرائي، ويُبطلن أقوالي كي أفقد الثقة بنفسي. فإذا قلت لهن: أرى الصحة بادية على وجه زوجنا اليوم، قلن لي: إنك مغرورة تدّعين ما لا تعرفين. وتعهادن على أن يُفسدن ما بيني وبين زوجي بلا قصد ولا احتياط، فإن قلت كلمة صدق حملنها إليه مُؤوّلةً شر تأويل. فقولي لهن: إن زوجنا بصحة جيدة حملنه له على أنه تهرّب مما يجب عليّ نحوه من خدمة ورعاية.

على أن حلفهن عليّ وكيدهن لي لم يصرفاني عما عزمت عليه. وما زادني عداؤهن إلا ثقةً بنفسي، وإيمانًا بصحة مبادئي، ووثوقًا بأنهن في أشد الحاجة إلى من يُصلحهن. وإن أعجب لشيء فعجبي للفضيلة كيف تذكي الرذيلة بدلًا من أن تحصرها وتقضي عليها ولعلّي متعجلة النتيجة كاملة، فمن أول بوادر الانهزام في صراع الفضيلة مع الرذيلة أن تنكشف

الرذيلة وتظهر بكامل قواها، ولا شك في أن طبائعهن التي أخذت أعالجها ظهرت بكامل قوتها. ولو كن أظهرن الرضا والاستسلام في أول النزاع لاعتقدت أنهن يبطنّ غير ما يظهرن، وأنهن يلتجئن إلى المواربة والنفاق ليأمنّ مقاومتي لهن، وعندئذٍ ينتقلن من رذيلةٍ إلى رذيلة، بل ينتقلن من رذيلةٍ إلى رذائل، ومن أجل ذلك ما أوهنني بمقاومتهن، بل زدنني إيمانًا وثقةً وعزيمة. إن نفسي لتشعر بروعة الجهاد إلى جانب ما شعرت به من جلال المبادئ، وما كان العنف ليزيد المبادئ الشريفة إلا قوة ومْضاء، وما كانت المقاومة لتزيد ذوي المبادئ إلا قوة احتمال ومناعة.

أرادت تربي العاقلة أن تتوسط بيني وبين سائر أترابي حين رأت الخصومة تزداد قوة يومًا فيومًا، فجاءتني تقول: منذ أخذت على نفسك أن تعالجي طبائع غيرك وأنت تبلين ضروب المِحن والأهوال، ولم يُكسبك عملك إلا صريع العداوة وعقد المحالفات، ولقد كنتِ من قبل في غنى عن هذا كله، فكُفّي عن مسعاك والزمي نفسك، وإن شئتِ أن تنشري الفضيلة وتقمعي الرذيلة، فليكن ذلك بظهورك للمخلوقات متحلّية بالفضيلة فيرونها بك حية نشيطة، بدلًا من أن يروها في صورة أصواتٍ جوفاء جامدة، وبذلك تأمنين الشر والنزاع وتكسبين العافية. قلت لها: أترين أن العجز عافية، والاستسلام نجاح، والإخفاق توفيق؟ فأنتِ أيتها العزيزة بين أمرين: إما أنك تؤمنين بصحة مبادئي، وإما أنك لا تؤمنين. فإن كنت مؤمنة فمثلك من لا يؤثر السلامة والعافية على الاستسلام والاستخذاء. وإن كنت غير مؤمنة فقولي لي إني ضالة. فقالت:

لا أظنك تنكرين أنك أثرت كوامن البغض والعداوة في نفوس أترابك، وأنك بعملك هذا أشعلت الخصومة وأذكيت الشر، وقد كنت من قبل في حلٍّ من هذا، أفما ترين الآن أنك أفسدت الحياة من حيث أردت الصلاح، وأسأت من حيث طلبت الصواب، وغويت من حيث التمست الرشد؟ إنك لم تُعيني الفضيلة بل أعنت الرذيلة، ولم تقوّي المبادئ الصالحة بل عزّزتِ المبادئ الطالحة. فقلت لها: إنك تحكمين بظاهر الأمر، ولو كنت تنعمين النظر فيما ترين لتبيّن لك أنني لم أخلق جديدًا ولم أبعث ميتًا، وإنما كشفت مستورًا وأظهرت مخبوءًا. فقد كانت علاقاتنا في أسرتنا تقوم في ظاهر الأمر على المحبة والتفاهم، وفي الباطن على المداهنة والمراءاة والمخادعة، فأصبحت اليوم تقوم في ظاهر الأمر وباطنه على أمرٍ واحد هو الصراحة والصدق. وهذا غُنمٌ لا غُرمٌ كما توهّمت، ثم إن دعوتي لإصلاحهن أوقفتهن على حقيقة طبائعهن، وقد كن إما مخدوعات بأنفسهن وإما مكابرات، والآن ظهر لهن من يريهن طبائعهن على حقائقها، سواء أرضين أم لم يرضين، ولابد يومًا من أن يرين صدق تصويري طبائعهن وإخلاصي لهن، وأن يرعوين عن ضلالهن، ولو لم أكاشفهن لظللن يعمهن في غوايتهن. وهذا ولا شك غنمٌ لا غُرم. ثم إن موقفهن مني وخصومتهن لي جعلا الفضيلة والرذيلة متقابلتين وجهًا لوجه. فهما الآن في صراعٍ عنيف، وإن كنت مؤمنةً بمبادئي – كما قلتِ- فلا بد أن تشهدي بعينيك ظهور الأولى على الثانية، عاجلًا أو آجلًا، ويكون عملي حينئذ قد عجّل على انتصار الحق على الباطل. ولو لم أفعل ذلك لتأجل هذا الانتصار حينًا آخر من الدهر. وليس ألذّ للنفس من أن تشهد صرع الرذيلة بأم عينيها.

وهـذا ولا شـك غنـم لا غـرم.

فأنـت تريـن إذن أني لم أخفـق في مبـادئي، ولم أُعـن الرذيلـة عـلى الظهـور كـما تـراءى لـك في بـدء الأمـر. فقالـت: أشـهد أنـك لمرزوقـة العـزم والصلابـة والإيمـان. فقلـت لهـا: أعينينـي بنصحـك، وبصرينـي بعيـوبي فذلـك أخلـق أن يعجـل لي التوفيـق. فأسرعـت إلي وقبّلـت رأسي قائلـة: منـك النصـح، وبغـيرك العيـوب، ولـك التوفيـق. فـزادني كلامهـا ثقـة بنفـسي، وإيمانًـا بمبـادئي، واستبشـارًا بالظفـر.

١٢

بعـد أن أشرف زوجنـا عـلى البُرء مـن مرضـه، ومكـث أيامًـا يسـتجمع قـواه ونشـاطه، إذ بـه ينتكـس فجـأة ويُعـاود المـرض بصـورة أشـد فيلتـزم مـأواه في حالـة صراعٍ شـديدٍ مـع آلامـه. كان جسـمه في هـذه المـرة أقـل مقاومـةً للمـرض، وبـدت عليـه مظاهـر الضعـف والانحـلال، فذهـب ذلـك اللـون القرمـزي مـن عرفـه، وحـل محلـه لـونٌ أسـمر أغـبر، وذلـك الإشـعاع الـذي كان يتدفـق مـن عينيـه، وعـاد النشـاط الـذي كان يبـدو في حركاتـه سـكونًا.

وكنـا حـين ندخـل عليـه ونـراه في مرضـه نُعـاني الألم المـبرّح، وتتقطـع أفئدتنـا عليـه، ويغشـانا حـزنٌ شـديد. كنـت وزوجاتـه نعـرض عليـه خدماتنـا ونلـح عليـه في ألَّا يـتردّد في تكليفنـا إسـعافه وتقديـم مـا يحتـاج إليـه. ولا شـك أنـه كان يلمـح في أصواتنـا الإشـفاق والإخـلاص، فـكان لا يتمالـك أحيانًـا مـن إظهـار ألمـه، ويسـألنا أن نقـدّم لـه مـا يُخفّـف آلامـه. ومـا كان مـا نقدّمـه لـه مـن طعـامٍ وشرابٍ ودواء بموصلـه إلى مـا يريـد. إن الأصحـاء الذيـن

يُشرفـون عـلى معالجـة المـرضى يسـتطيعون أن يفعلـوا كل شيء في سـبيل راحتهـم، إلا شـيئًا واحـدًا هـو ردّ الصحـة المفقـودة، والعافيـة المسـلوبة. ويعلـم اللـه أني كنـت في حـال لـو أسـتطيع معهـا أن أشـاركه في صحتـي وعافيتـي لمـا تأخـرت. وكل مـا يملكـه المخلـوق يمكـن أن يُعـار عـدا الصحـة فإنهـا لا تُعـار، ولا تنتقـل مـن شـخصٍ إلى آخـر.

كان زوجنـا إذا اشـتد ألمـه، وشـعر بالضعـف يـسري في دمـه، يتمنّـى لـو أنـه يسـتطيع أن يخـرج إلى السـاحة ليستنشـق الهـواء كـما كان يفعـل في السـابق، ذلـك الهـواء الرخيـص المبتـذل الـذي كنـا نعـبّ منـه حتـى نملّـه. واعجبًـا للمريـض إنـه يـرى الصحـة أعـز شيء عنـده في حالـة مرضـه. فـإذا مـا لبـس ثـوب العافيـة وعـاد إلى حياتـه المألوفـة، غـرق في لجـة النسـيان ولم يفطـن لقيمـة الصحـة، حتـى الأعـمال العاديـة التـي يتـبرّم بهـا السـليم في كثـير مـن الأحيـان يتمنـى وهـو مريـض أن يعـود إليهـا مؤلمًـا عـلى نفسـه ألا يتـبرّم بهـا. والصحـة لا قيمـة لهـا في نظـر السـليم، أمـا المريـض فيراهـا أغـلى مـا يمكـن المخلـوق أن يملكنـه في حياتـه. ولـو كان المخلـوق يُقـدّر الصحـة لحـرص عليهـا وسـعى لدوامهـا. ولكنـه للأسـف تغمـره في حـال صحتـه مشـاغل الحيـاة بـل سـخائف الحيـاة.

ظـل زوجنـا العزيـز يُعـاني تباريـح المـرض أسـبوعًا كامـلًا أسـلم في نهايتـه روحـه لباريهـا. ويـلٌ لي مـن ذكـرى تلـك السـاعة التـي رأيتـه فيهـا في صراعٍ عنيـفٍ مـع المـوت. كـم كنـت أتمنـى لـو سـبقته إلى القـبر وسـلمت مـن رؤيتـه عـلى تلـك الحالـة. وفي أواخـر سـاعات حياتـه رأيتـه وكأنـه ألقـى سـلاحه وكـفّ عـن الـصراع، إذ تبـيّن لـه أنَّ خصمـه أقـوى مـن أن يُقهـر،

وأشد من أن يُغلب، فبدت على وجهه صفرة الموت، وتراخت أطرافه، وهدأت حركته، وجمد الدم في عروقه.

ما كنا نستطيع أن نُحادثه في تلك الساعات إذ كان لسانه معقودًا وفمه مغلقًا في أكثر الأوقات. ولكنا كنا نلمح في وجهه أثر الصراع العنيف الذي يبدو على المستميت في القتال، وأغلب الظن أن تلك الساعات كانت ساعات صراعٍ بينه وبين فريقين من الأرواح: الفريق الأول أرواحٌ طاهرةٌ صالحةٌ رفيقٌ مؤنسةٌ مؤمنة، كانت تتحدث إليه في خفية عنا، داعية إياه إلى التجلّد والصبر، والفريق الثاني أرواحٌ شريرةٌ قاسيةٌ موحشة، تنكّل به أشد التنكيل، وتُدخل الرعب في قلبه. وأرى أن الفريق الأول هو حسناته تتزيّا بزي الملائكة الأبرار، والفريق الثاني سيئاته التي كانت تتزيا بزي الشياطين القساة. ولا بد أن يكون الفريقان قد التحما مرارًا متصاولين متبارزين إلى أن جاء المبعوث من الله فانتزع روحه من كلا الفريقين، ونقلها إلى حيث قُدّر لها أن تنتقل.

وما أن أسلم زوجنا روحه حتى هرعنا إليه وانكببنا عليه نذرف الدموع مترحّماتٍ متوجّعات. كنا نبكي وننتحب ما شاء لنا البكاء والنحيب. ولكنا لم ننتفع بما ذرفنا من دموع. ورأينا أن التجمّل بالصبر هو آخر سلاح المفجوع، فنقلنا زوجنا من مأواه إلى مثواه. وبعد أن عدنا إلى مستقرنا عاودنا التوجّع والتفجّع حتى كدنا نشعر أن نفوسنا تحاول أن تجد لها مخرجًا من أجسامنا، ويا ليتها خرجت. واعجبًا لتلك القوى وذلك البأس وذلك الزهو أين ذهبت! هل يفطن المخلوق في أثناء حياته إلى أن جميع ما يفتخر به من زهوٍ وقوةٍ وسلطان، وما

يُزهى به من ملكٍ وجاه، وما يعتز به من أصحابٍ وأحباب، إن ذلك جميعه لا يغنيه في ساعةٍ ما فتيلا، وإن جميع ذلك يعود في ساعةٍ ما إلى العدم. إن ما يفتخر ويعتز ويُزهى به المخلوق يسقط معه، كما يسقط الريش الواحدة تلو الأخرى، فيعود كما خُلق حفنة من تراب تذوب كما يذوب الملح مع تعاقب الأيام. وإني إذ أطلق لفكري التأمل في هذه النتيجة التي لا مناص منها أعجب للمخلوق كيف ينسى تلك الساعة الرهيبة، فيمعن في التجنّي والإسراف والزهو والكِبر، أعجب للمخلوق كيف ينسى وهو يذكر كل يوم بتلك الساعة الرهيبة بما يرى من أموات، وما يسمع من أصوات ناعيات، إنه لو فكر في حاله التي سيصير إليها لما ظلم، ولا أساء، ولا خدع، ولا نافق، ولا عرف سوءًا في حياته قط. ولو تذكّر كل مخلوق تلك الساعة لكان العالم أحسن حالًا، وأنعم بالًا، وأسمى خلقًا، وأشرف عملًا، وأحرص على سعادة المخلوقات. ولكن المخلوق ينسى مصيره.

أحقا إن ذلك الزوج الصالح، وذلك الجسم القوي المتين، وتلك المزايا العالية ستصبح بعد حين حفنةً من تراب؟ أجل إنه صائرٌ إليها لا محالة، ولكن صفاته وشمائله ستنجو بنفسها وتعود إلينا حيّة كما شاهدناها. إن الجسم المصنوع من المادة هو الذي يصبح حفنة من تراب، وأما الشمائل والأخلاق فتلك ليست من مادة ولن تصبح حفنة من تراب. فنحن اليوم إذ نعود إلى مأوانا لا نقف له على أثر، ولكنا نُحس إحساسًا شديدًا بتلك الروح العظيمة وتلك السجايا النبيلة. ولو كانت مصنوعةً من نفس المادة التي صُنع منها جسمه لما أحسسنا

بها. ألا يجب علينا بعد هذا ألَّا نسرف في رعاية الجسم وتقديس المادة على حساب الروح والأخلاق والمبادئ. إن المخلوق الذي يحب المادة لا يُلام على حبّه إياها لأن جسمه صُنع منها، والتجاذب بين الجسم والمادة لا يمكن أن يُصرم، ولكن أليس هناك في الجسم وغير الجسم أشياء وأشياء ينبغي للمخلوق أن يُحب من أجلها الروح والمبادئ؟ ألا يجب عليه أن يؤثر الثاني على الأول لأن الأول إلى فناء والثاني إلى خلود! ألا يجب عليه أن يُعطي المادة ما تستحق دون إسراف وأن يعطي الروح ما تستحق دون قبض أو تقتير؟

ليس لي من وراء هذه الأفكار ما ينفع، ولكني في حقيقة الواقع أرى فيها عزاءً لما أنا فيه من حزنٍ مبرّح. وإذ أعود إلى عقلي أستمد منه التجلّد والصبر يزيد إيماني بقوة الروح وقيم الفضائل وتزيد ثقتي بمبادئي التي ما برحت أفكّر في بثها بين أترابي.

١٣

اللهم قد جفّت دموعي لكثرة ما بكيت على ذلك الزوج الصالح – بلّ الله ثراه – ولكن ما نفع البكاء ولا العويل. والذي نفسي بيده لو كان بكائي عليه يردّه إليّ لبكيت ثم بكيت إلى ما شاء الله. ولو كان حزني وتوجّعي يردانه إليّ لحزنت وتوجّعت إلى ما شاء الله. بل لو كنت أستطيع أن أفديه بمهجتي لفعلت بلا تردد ولا توان. وإني يوم تمنّيت أن أُمتحن بصحتي ودمي وروحي لأثبت وفائي ما شططت ولا بالغت.

وافجيعتاه! لقد انهار عمود بيتنا، وحامي حمانا، وأسد عريننا، وأصبحنا

نهبةً لكل غاز. فمن يرد عنا اليوم العادي والباغي؟ ومن يدفع عنا الشر والعدوان؟ لقد أصبحت حياتنا بعد زوجنا أمرّ من العلقم. ولولا أن في تمنّي الموت نكرانًا لنعمة الخالق لتمنّيته. ولو أن الانتحار ثورة طائشة على حكم الله لالتجأت إليه في رضى واطمئنان.

إيه أيها الزوج الصالح! لقد عمرت مكرّم الخلق، محمود السجايا، مبرّر الأعمال، متحليًا بأجمل ما يتحلّى به مخلوقٌ في هذه الحياة. وغادرتنا فغادرت وراءك حسرات مستقرات في الأعماق، وكلوم بالغات ساكنات في الحشايا والضلوع، وجفون مقرذحات مغرقات بالدموع، ونساء باكيات نائحات ما لهن من نصير، وأيامي ثاكلات نادبات ما لهن من معيل.

اللهم إنا نعتصم بك لتقينا شر السخط على نعمتك التي أنعمتها علينا. اللهم اغفر لنا وارحمنا وجمّلنا بالصبر.

ما رِزْؤُنا بهين حتى ننساه، وما مصيبتنا بيسيرة حتى نتحمّلها. فإن زوجنا يتمثّل لنا في كل ما نراه. في الطعام والشراب، في الأرض وفي الهواء، في المأوى وفي الساحة، في السكون وفي الحركة، في الليل وفي النهار، في كل وقتٍ وفي كل مكان.

إنا نخرج اليوم في الصباح نلتمس الطعام والشراب على غير هدى، فواحدة تشرق وواحدة تغرب، وهذه تمشي وتلك تجلس ولولا هذا السور الي يُحيط بمأوانا لانحل عقدنا، وتشتّت شملنا ولولا فضل من عقل، وبقية من إيمان لحل بنا الهلاك.

كانت تربي العاقلة الرشيدة في هذه الأيام السوداء أرجحنا عقلًا، وأقلنا استسلامًا للأحزان وأحرصنا على جمع الشمل. فقد جمعتنا يومًا وقالت: إنني أعلم ما وقع بينكم ولا أحسبكن بعد ما أصابنا من فجيعة بعائداتٍ إلى ما كنتن فيه. ونحن الآن نجابه خطر الغزو والعدوان، فإن عُدتن إلى ما كنتن فيه من خصام وخلاف فسيُبْطشُ بنا جميعًا دون رحمةٍ ولا شفقة، وإن اعتصمتن بحبل المحبة والوفاق وقفتن متكاتفاتٍ ورددتن بوادر الاضمحلال. ونحن وإن كنا إناثًا ضعيفات فإن الله معنا ما دمنا مع أنفسنا، فضعيفان مؤمنان متحدان أقوى من قويٍّ باغٍ معتد. لأنا نستمد قوتنا من الاتحاد والحق، ويستمد عدوُّنا ضعفه من البغي والعدوان. ونحن إن وقفنا في وجه العدو الباغي سواء أذكرًا كان أم أنثى جسمًا أم روحًا فلا نقف إناثًا في وجه ذكر ولا ضعيفات في وجه مسلح، ولا أجسامًا في وجه جسم هائل، وإنما نقف حقًّا في وجه باطل وقوة في وجه بغى، وإيمانًا في وجه كفر، وخيرًا في وجه شر. فتماسكن وتكاتفن والله يحرسكن ويرعاكن.

كانت تربنا الرشيدة تتكلّم وصوتها يدوّي في آذاننا كأنه ممزوج بصوتٍ من الخالق. وما كانت تنتهي حتى فتحت فمي لأؤازرها في دعوتها، ولكني ما كدت أنطق بكلمة حتى صاحت بي إحدى أترابي ممن يزعمن الحلف عليّ تقول: اصمتي فالكلمة لي. فتولاني الجزع خشية أن يبدر منها ما يفسد الدعوة الطيبة ولكني سمعت منها كلامًا أدهشني. قالت: أيتها الأخت العزيزة لقد تكلّمتِ بإيمانٍ وإخلاصٍ عظيمين. ولكنك أسأت الظن بنا، وقدرت ما لم يدر في حسابنا. أتظنيننا

مـن البلـه بحيـث نغفـل عـن حاضرنـا ومسـتقبلنا؟ فـأي مخلـوق يلتجـئ في مثـل هـذه الحـال إلى شـقاقٍ فمصـيره التهلكـة، ليـس لنفسـه فحسـب ولكـن لنفسـه ولغـيره عـلى السـواء. وقامـت تـربٌ ثانيـة وقالـت للسـابقة: ليـس واللـه الحـاضر ولا المسـتقبل هـو الـذي يدعونـا إلى الاتحـاد والوفـاق وإنمـا هـو المـاضي. ومـا كادت تنطـق بهـذه الكلمـة حتـى خنقتنـا العـبرات وعجـزت عـن تتمـة الـكلام. ومـا رأيناهـا تبـكي حتـى هطلـت دموعنـا كالمطـر يتسـاقط بعـد انحبـاس. وكأن الصـبر خاتـم منـع انصبـاب الدمـوع ففضـه بكاؤهـا. وانهالـت العـبرات. وفي تلـك الحظـة الرهيبـة قامـت كل واحـدة إلى تربهـا التـي بجانبهـا تكفكـف عبراتهـا وتواسـيها وتعزيهـا. وكان بجانبـي تـربي التـي وصفتهـا بالحسـد. واللـه لقـد كانـت أحـدب عـليَّ مـن نفـسي فـما كـدت أراهـا مواسـية حتـى قمـت إليهـا وقبلـت عينيهـا وقلـت لهـا سـبق أن أسـأت الظـن فاغفـري لي سـوء ظنـي، واعفـي عنـي. فقالـت: أي سـوء ظـن وأي غفـران تذكريـن فواللـه لقـد كنـا نـرى في عينيـك الحـب الخالـص، والعطـف الصـادق، والتضحيـة الغاليـة. فصاحـت تربنـا الرشـيدة: لكـن اللـه! لقـد كنـتن أفصـح نطقًـا، وأبلـغ عمـلًا. وواللـه إنكـن لتثبـتنّ أنكـم أطيـب منـي قلبًـا، وأوسـع منـي صـدرًا. ولقـد كنـت أخـشى أن تحـل بنـا الهزيمـة بعـد الحـزن والألم. فكنـت متجنيـة عليكـم، إذ تبـيّن لي أن الألم جمـع بـين قلوبنـا بعـد أن طهرهـا بمـا شـابها. فقلـت: أيتهـا العزيـزة إنـه مـا يسـوؤني أن أراكِ تعتقديـن أن الألم لا الحـب هـو الـذي وحّـد بـين قلوبنـا. حقًّـا إن الألم بليـغٌ ونفّـاذ، ولكـن الحـب أبلـغ وأنفـذ. ونحـن وإن جمّعنـا الألم في هـذه اللحظـة، فسـيجمعنا الحـب طـوال العمـر. إن الحـزن يوحّـد الحـزانى، والحـب يوحّـد المتحابّـات، وحيـاة المخلـق تقـوم عـلى الحـب لا

الحـزن. فلنعـش إذن متحابـات متكاتفـات عـلى الحـب دون الحـزن. لقـد كان زوجنـا في حياتـه سـمط العقـد وعمـود البيـت، فلنحافـظ عـلى هـذا الجمع بعـد مماتـه، ولنتعـاون عـلى بنـاء بيتنـا مـن جديـد. وقمـت وقامـت الأتـراب ودخلنـا مأوانـا نلتمـس الراحـة في هـدوء الليـل.

١٤

للـه دنيـا الحـب مـا أجملهـا وأقواهـا، إنهـا جميلـةٌ لأنهـا تُشـيع الحنـان والرحمـة والتفاهـم والإخـاء، وتبعـث الـرضى والـسرور، والبهجـة والاطمئنـان. وهـي قويـة لأنهـا قـادرة عـلى أن تصنـع مـا يُعجـز جميـع القـوى.

إن الحـب نـورٌ يمـلأ القلـوب ويوحـي إليهـا الطهـر والوداعـة والرفـق والشـفقة والحنـو والحنـان. إن الحـب إذا دخـل قلبًـا طهّـره مـن الجشـع والحقـد والبغـض وكل رذيلـة تتصـل بالمخلـوق. وإن الحـب قـوة نشـيطة مسـيرة إلى الخـير والصـلاح. إن الحـب إذا دخـل قلبًـا قسـمه مشـاعًا للنـاس أجمعـين، وعـوض عـن كل جـزءٍ موهـوب أجـزاءً مضاعفـة. الحيـاة بـلا حـب عـذابٌ دائـم، ونـارٌ محرقـة، ومصائـب متواليـات. والحيـاة بالحـب نعيـمٌ دائـم، وسـعادةٌ مقيمـة، وبهجـةٌ عامـة، ومتعـةٌ لا نفـاذ لهـا.

لقـد كنـت أعتقـد أني مقبلـةٌ عـلى عمـل يحتـاج إلى براعـة وحسـن حيلـة، حـين أخـذت عـلى عاتقـي أن أعالـج طبائـع أتـرابي، وكنـت أقـدر لـكل داءٍ دواء. فـما أن أوينـا إلى مضاجعنـا في مسـاء ذلـك اليـوم الـذي اجتمعنـا فيـه وتبادلنـا المحبـة والإخـاء، حتـى أوت تلـك السـجايا إلى مقرّهـا الأخـير. ومنـذ الصبـاح الـذي أشرق علينـا بعـد ذلـك الاجتـماع، ونحـن نتمتـع بأهنـأ حيـاة،

وكأن اللـه أعـاد خلقنـا مـن جديـد، أو أعـاد علينـا قلوبنـا بعـد أن طهرهـا كل مطهـر، فـلا حسـد ولا حقـد، ولا خـداع ولا كـذب ولا ريـاء. أي قـوة في الوجـود تسـتطيع أن تطهـر النفـوس مـن مطامعهـا، وتغسـلها مـن أوهامهـا، وتؤلـف بينهـا إيلافًـا لا ينالـه ثلـمٌ ولا صـدع.

وإن أعجـب لـشيء فعجبـي لهـذه المخلوقـات، التـي لا تتوسّـل بالحـب لتتغلـب عـلى مـا ينشـأ بينهـا مـن خـلافٍ ونـزاعٍ وخصومـات. فـما مـن مشـكلةٍ تسـتطيع أن تثبـت أمـام الحـب، بـل لا يمكـن أو توجـد مشـكلة في عـالم الحـب. فالحـب والخـلاف لا يجتمعـان في صعيـدٍ واحـد. لقـد اختـبرت هـذه الحقيقـة بنفـسي. فبعـد أن كان بيتنـا معرضًـا للدمـار والفنـاء بسـبب تنـازع الأهـواء وتنافـر الآراء، وتشـعُّب المطامـع، وتضـارب الطبائـع، أخـذ يقـوم عـلى أثبـت أسـاس وأمـتن قاعـدة، هـو الحـب. ليـس في الوجـود مـا يدعـو إلى الاختـلاف وليـس فيـه مـا يدعـو إلى الطمـع والجشـع، وليـس فيـه مـا يدعـو إلى الظلـم والطغيـان. أليـس الحـب وفـيرًا تنبتـه الأرض، وتـذروه الريـاح حيـث نعلـم ولا نعلـم؟ أليـس المـاء مـن رحمـة اللـه يرسـله إلى النـاس أجمعـين بـلا محابـاة ولا تفرقـة؟ أليـس الهـواء مـلء السـماء ينالـه مـن يريـد؟ فعـلام إذن الخـلاف والطمـع والاسـتبداد؟ ثـم أليـس للمعـدة حدٌّ لـن تتعـداه؟ أليـس للجسـم طاقـةٌ محـدودةٌ لا سـبيل إلى توسـيعها؟ فعـلام إذن الجشـع والاحـتراب والتنافـس؟ لقـد كنـا فيـما سـبق إن لمحنـا حبّـةً سـمينة أو قطعـة مـن حلـواء أو هنـة مـن خـضرة رطبـة، تثـور في نفوسـنا ثائـرة الطمـع والإثـرة، وتهجـم كل منـا عـلى تلـك الطعمـة لتسـتأثر بهـا دون صديقاتهـا. أجـل كنـا نختلـف في نظرنـا للطعـام فمنـا مـن تعـدو بسرعـة

الريح، ومنا من تتئد في سيرها، ومنا من تضرب بالمناكب، ومنا من تترفق، ومنا من تتمنى أن يسقط الطعام بين يديها. وكل ذلك بدافع الطمع والإثرة. ولو كنا نترك كل واحدة تظفر بما تريد من طعامٍ أو شراب لبلغت الكفاية وبرئت من الطمع والمزاحمة. ونحن جميعًا نعلم أن الرزق موفور لجميع المخلوقات، وأن الموت جوعًا من أندر ما يقع في الوجود. ومع ذلك نتهافت على السلب والنهب، وتخليص اللقمة من فم الغير. كنا نعيش مدفوعاتٍ بشهواتنا الجسمية، وأطماعنا المادية، وما حكمنا العقل والقلب في جميع هذه الحالات. نعم قد يعجز الضعيف عن الوصول إلى ما يريد، وقد يُقعد المرض المخلوق عن تحصيل قوته، وقد يشغل المعيل بعياله عن توفير أسباب الرزق لهم. فهذه حالاتٌ لو حكمنا فيها العقل والقلب لما كان يجب أن توجد. فكل مخلوقٍ معرّضٌ للكبر والمرض والمشغلة، ولو كنا نحب لغيرنا ما نحب لأنفسنا ونحب لأنفسنا ما نحبه لغيرنا لساعدنا الضعيف حتى يقوى، والمريض حتى يبرأ، والمعيل حتى يتفرّغ لنفسه.

ولكن الخلق محرومون من عقولهم وقلوبهم، وكأنهم لا يعيشون إلا بمعدتهم وأجسامهم. وعندما يعرض لهم ما يغذي أجسامهم يضيّعون عقولهم وقلوبهم. ونحن اليوم قد برئنا من هذا جميعه بعد أن أخذنا نحيا حياةً جديدة، قائمة على الحب الخالص، وبعد أن رأينا في وفاة زوجنا مصير ذلك الجسم الذي نبالغ في الاحتفال به، وما هو إلا حفنة من تراب. نحن اليوم نسير جميعًا جنبًا إلى جنب، فإن رأينا حبة

سمينة دفعت كل منا صاحبتها إليها دفعًا، وما تتناولها إحدانا إلا على استحياء. فحمدًا للحب على ما صنع، وحمدًا لله على ما أنعم.

١٥

مضى على تربي الرشيدة أيامٌ وهي ملتزمة المحضن مرخمة على بيضها، وكم نحاول أن نغريها بالخروج معنا فلا تفعل. لقد كانت في الأيام الأولى تتناول الحب الذي ننقله إليها، أما اليوم فقد امتنعت عن تناوله.

ليس من الحق أن أعذلها ولكني أشعر أنها انحرفت عن مألوف عادتها، فهي في غالب الوقت صامتة لا تكاد تنبس بكلمة. وهي في حالة اضطراب يثيرها ويهيجها أتفه الأمور فإذا ألححنا عليها بالطعام نفرت عنا وعبست، وإن دنونا منها نستفسر عن حالها تبرّمت وتكدّرت. وإن مس جسمها شيء هاجت وماجت.

دنوت منها أمس وقد ضمر جسمها، وغارت عيناها، واصفرت وجنتاها، أتوسّل إليها أن تشفق على نفسها. قلت لها: يا حبيبتي ليس ما يوجب بقاءك في المأوى محرومة من الطعام والشراب. لست ألتمس منك مشاركتنا في التنزّه والرياضة، ولكني ألح عليك أن تتناولي الطعام والشراب في أوقاتهما. إنك يا حبيبتي تجهدين جسمك جهدًا يؤذيك. فقالت لي: أيتها العزيزة، لا تقسي عليّ باللوم. فلو كنتِ مكاني لفعلتِ ما أفعل. وأشاحت بوجهها. فانتقلت من مكاني إلى حيث أرى وجهها وقلت لها وأنا أحدّق إلى عينيها الغائرتين: يا حبيبتي، قد يكون ما

تقولين وقد لا يكون. فلست أجادلك، ولكني أدعوكِ بل أرجوكِ أن تترفقي بنفسك. تعالي معي لنتناول الغداء معًا تعالي وكُلي مرةً واحدةً في اليوم. فرفعت إليّ عينيها الذابلتين وقالت: أخشى أن يُضجرني إلحاحك فأتفوّه بما يكدرك ويكدرني. افهمي ما أقول: لست أملك حرية العمل. فقلت: يا أختي الحبيبة، أنتِ مثال العقل والكمال، وقد كنا نستمد منك الحكمة والرشاد والنصح وما تبرّمت بنا، فما الذي غيّرك الآن؟ قالت: أو ما ترين ما أنا عليه؟ قلت: بلى، قالت: أتحتاجين إلى شرح؟ قلت: إن ما أراه لا يبرّر إمساكك عن الطعام، وانصرافك عن نفسك كل هذا الانصراف. قالت: أنتِ ترين ظاهر حالي ولا ترين باطنه. قلت باسمة: أَوَتَرين أنتِ باطن حالك؟ قالت: يا أختي، إني لا أرى باطن حالي ولكني أشعر بأن قواي جميعها منصرفة عن نفسي انصرافًا لا خيرة لي فيه. قلت: أو ما تشعرين بحاجة إلى ما يحفظ عليك نفسك من طعامٍ أو شراب؟ قالت: إني لا أشعر بنفسي هذه حتى أشعر بما تطلبه من غذاء، قلت: عجبًا، أما تشعرين بالحياة تدب في جسمك؟ قالت: انظري يا أختي، ورفعت كتفيها عما تحتها، فنظرت وقلت: هم الأجنة أليس كذلك؟ إني ما أرى جديدًا. قالت: أدني قليلًا. فدنوت، فقالت: ألقي بسمعك برفق. فألقيت بسمعي، وإذا حركة خفيفة تدب في داخل الأجنة. قلت: أختي ما الذي أسمع؟ قالت: روحي تخفق في الداخل. قلت: يا الله! روحك! أو تنتقل الروح من مكانٍ إلى آخر؟ فابتسمت وقالت: هو ما تسمعين، وسترين بعينيك عمّا قريب مصداق ما تسمعين. قلت: عجّلي القول وأزيلي الفزع من نفسي. قالت: لا تفزعي يا حبيبتي، إن الله الذي أودع فينا سر الحياة هو الذي ينقل

هـذا الـسر إلى هـذه الأجنـة، وهـو الـذي يبعثهـا حيـة تـدب عـلى الأرض كـما نـدبّ! قلـت: أو مـا يخيفـك انتقـال روحـك إلى غـيرك؟ قالـت: يخيفنـي؟ إنـه يبعـث فيّ شـعورًا لا أسـتطيع أن أصفـه لـك مهـما أوتيـت مـن بيـان. إني أشـعر أني أسـعد مخلوقـة عـلى وجـه الأرض. إن حُبـي للحيـاة أُفـرغ في هـذه الأجنـة، ولكنـه سـيعود إلي مضاعفًـا حـين أرى هـذه الأجنـة تـدب حـولي. قلـت: أتريديـن أن تقـولي إن هـذه الأجنـة قطعـةٌ مـن نفسـك؟ قالـت: أقصـد أن أقـول إنهـا أرواحٌ منتزعـةٌ مـن روحـي، فأنـا الآن أشـهد انتقـال روحـي إلى جيـلٍ قـادم، بـل إلى أجيـالٍ متعاقبـةٍ عـلى مـر السـنين، فأسرعـت إلى يدهـا وأكببـت عليهـا أغسـلها بدمـوع الفـرح، اشـتراكًا معهـا ببهجتهـا. فانحنـت ورفعـت رأسي وقالـت: يـا أختـي، أشـكر لـكِ مشـاركتك إيـاي في فرحـي. فقلـت لهـا: أيتهـا الحبيبـة الشـكر لـكِ فأنـت التـي حلّـت بـك نعمـة اللـه، وأنـت التـي سـتدخلين الفـرح إلى قلوبنـا وتعوّضـين علينـا مـا فـات، فقالـت: يـا أختـي، مـا سـيأتي لا يعـوّض مـا فـات. ومـا كان للمسـتقبل أن يعـوّض المـاضي.

وفيـما نحـن في الحديـث إذا بهـا تنتفـض فجـأة وتقـف كالحيـوان المفـترس حـين يلمـح فريسـته. فزعـت لمنظرهـا وصحـت: أختـي مالـك؟ فقالـت: انظـري وراءك، فنظـرت وإذا وجـهٌ غريـب يلـوح مـن بعيـد، فقلـت: يظهـر أنـه مخلـوقٌ ضعيـفٌ لا خطـر لـه. قالـت: ومـا يريـد؟ وانطلقـت كالسـهم نحـو ذلـك الوجـه، وريشـها يضطـرب اضطرابًـا شـديدًا. فلحقـت بهـا. ومـا كاد ذلـك الوجـه يراهـا حتـى تـوارى عـن الأنظـار. فهـدّأت روعهـا ورجوتهـا أن تعـود إلى مأواهـا. فقالـت: لا أطيـق أن أرى غريبًـا في هـذه الديـار، فقلت:

نحـن نفديـك بأرواحنـا. فقالـت: إنـك لا تسـتطيعين أن تدفعـي الـشر، بـل لا يسـتطيع كل مـن في البيـت أن يدفعـه، ولكنـي أنـا وحـدي أسـتطيع أن أدرأ العـادي مهـما اشـتد بأسـه، فـإن اللـه يمـدني بقـوة تسـتطيع أن تقـف في وجـه كل عـدو، وإن كان بقـوة النمـر، قلـت: ولكنـك ضعيفـة نحيلـة، قالـت أخطـأت إني أقـاوم مقاومـة مـن يسـتمد القـوة مـن اللـه، وقـوة اللـه لا تُقهـر. ولم تعـد إلى مأواهـا حتـى تيقّنـت أنهـا وأجنتهـا في مأمـن مـن كل شر، فتعجبـت لذلـك الجسـم النحيـل الضئيـل كيـف دبّـت فيـه قـوة ثـور شرس في لحظـةٍ واحـدة! وأردت أن أتيقـن مـن ذلـك الوجـه الغريـب، فخرجـت أبحـث عنـه وراء الجـدار بعـد أن تركـت صديقتـي رابضـة في مأواهـا تسـهر عـلى أجنتهـا بعينـين كالجمرتـين.

١٦

ولم ألبـث طويـلًا في البحـث حتـى اهتديـت إلى ذلـك الوجـه الغريـب، ولشـد مـا دهشـت حـين رأيـت مخلوقًـا مثلنـا، نحيـل الجسـم، منهـوك القـوى، زائـغ البـصر، ترتعـد فرائصـه ارتعـادًا شـديدًا، انحنيـت عليـه برفـق وقلـت: مـن هـذا؟ فقـال بصـوتٍ متقطـع: طـارئ غريـب بائـس، فحملقـت في وجهـه وإذا هـو أنثـى مثلنـا فأخـذت بيدهـا، وسرت بهـا إلى السـاحة. ومـا أبصرنـا الأتـراب حتـى هرعـن إلينـا وقلـن: مـا الخـبر؟ فقلـت: طـارئ مسـكين التجـأ إلى مأوانـا، فلنبـادر إلى إسـعافه، فذهبـت تـرب تحـضر المـاء، وأخـرى تحـضر الحَـبّ، وجلسـت أنـا بجانبهـا، أطيّـب نفسـها، وأشـد عزيمتهـا، وبعـد وقـتٍ قصـيرٍ اسـتعادت قواهـا واسـتطاعت أن تنبئنـا عـن حقيقـة حالهـا. فقلـت لهـا: أيتهـا الأخـت العزيـزة، مـا الـذي دفعـك إلى هـذا المـأوى. فقالـت:

كنت جائعةً عطشى، خائرة القوى فخرجت ألتمس ما يسد الرمق، فجرني القدر السعيد إلى مأواكن، وما كدت أراكن من وراء الجدار، وألتمس منكن المعونة حتى رأيت في عيني إحداكن شرًّا رعبني فتسترت وراء الجدار، وما أطقت الكلام. قلت: أليس لك مأوى أيتها الأخت؟ قال: لي. قلت: ألست تجدين فيه الطعام والشراب؟ قالت: ومن أين لنا الطعام والشراب؟ قلت: الحبّ في الأرض، والماء كثير. قالت: في غير مأوانا. نحن أسرةٌ كبيرة، كثيرة العيال رقيقة الحال، نبحث عن الطعام فلا نكاد نصل إلى ما يسد الرمق، ونحن فوق هذا في قتالٍ دائم، لا تكاد إحدانا تقع على حبة سمينة أو هنة رطبة حتى تهجم عليها سائر الأسرة. فإن كانت قوية نشيطة شرسة فازت بنصيبها بعد عراكٍ وفزع، وإن كانت ضعيفة مسترخية، انتُزع نصيبها من فمها، وطار إلى فمٍ آخر. قلت: أهذا دأبكن حياتكن كلها؟ قالت: نعم. إني ما أعرف طعم النعمة حتى أصفها لك، وإنما ذقت ألوان الحرمان والشقاء والفاقة، وأستطيع أن أحدثك عنها أيامًا طوالًا. فقالت إحدى أترابي: أليس عندكم زوجٌ يعينكن على الرزق، ويحميكن من المكروه؟ فأجابت: عندنا زوج، ولكنه زير نساء، نهمٌ أكول، زوجاته كثيرات، وعياله عديدون كثيرون، وليس في وسعه أن يدفع عنا ضيمًا أو يُيسّر لنا رزقًا. وماذا يفعل الذكر في الأسرة الكبيرة التي تعد عشرين نفسًا؟ وقد عشت على هذا الحال منذ وعيت. وما أعرف كيف كانت تعيش الأسرة من قبل، ولكني أرجح أنها عاشت في الماضي كما تعيش الآن، ولو كان الفقر طارئًا لوُجد من يعالجه أو يدفعه بسبيلٍ من السبل، ولكن الأسرة ألفت الضيق ورئمت المذلة، وتعوّدت الشقاء. قالت ترب أخرى:

ولم لا تدعين أترابك إلى معالجة تلك الحالة، وليس يعدم الساعي بابًا من أبواب الفرج. فقالت: إنهن مشغولات بالحسد والنفاق والكذب والخداع، وما يسلم يوم من شرّ يبيّت، أو مكيدة تُنصب. فقالت ترب ثانية: أليس بينكم عاقلة رشيدة حازمة، تسعى إلى إصلاح الحال، وقطع دابر الشر؟ فقالت: لو وُجدت العاقلة لاستضعفت واستذلّت واستهدفت لصوب العذاب. قلت أيتها الأخت: صوتٌ واحدٌ يرتفع في سبيل الإصلاح والخير، يُحدث أثرًا عميقًا في النفوس، وهو وإن لم يُنتج تغييرًا عاجلًا فلا شك أنه يُنتج تغييرًا آجلًا. قالت: أنتِ يا أختي تطلبين من يَضحّي بنفسه في سبيل غيره، وقد عزّ بيننا من يُضحّي. قلت: أولستِ مؤمنة؟ قالت بلى. قلت: كوني أنتِ المضحّية، قالت: لو كان لي أقل رجاءٍ في الظفر لكنت من تريدين. ولكن الشر في بيتنا بلغ حدًّا من الطغيان والعنف بحيث لم ينفع معه نصحٌ ولا إرشاد. قلت: يجب أن يكون مع الضحية أملٌ وإيمان، وإلا فمصيرها الإخفاق. قالت: وما دواء الجائع البائس؟ إن فراغ المعدة في نفسه شرٌّ لا يُقهر، ولو تيسّر للأسرة ما يسد الرمق، لصح أن تُنصح فتُستنصح، وأن تُرشد فتُسترشد. قالت إحدى الأتراب: الحق ما تقولين، فيجب أولًا أن تشفى الأسرة من تباريح الجوع، قبل أن تعالج نفوسها، فقالت: وما السبيل إلى ذلك؟ قالت الترب: السبيل إلى ذلك واضح. انطلقن من المأوى، واضربن في الأرض. فقالت: ومن أين الخروج؟ إن حول مأوانا جدارًا لا يجتازه إلا المستميت. قلت: أو أنتن محجوزاتٌ محجوبات عن المخلوقات؟ قالت: إننا في سجنٍ فيه قسوة المادة، التي لا ترحم ولا تلين. قلت: إذن اجتمع عليكن السجن والفقر. قالت: والفساد والبغي. قلت: ولا يعيش

هـذان إلا بوجـود ذينـك، ومـا رأيـك فيمـن يحمـل إليكـم الطعـام؟ قالـت: ومـن يبيـع نفسـه رخيصـة؟ قلـت: أو يهلـك المحسـن عندكـم؟ قالـت: مـا عرفنـا المحسـن حتـى نميّـزه مـن المـسيء. قلـت: ولكـن فيـك غـير ذلـك، وإن أترابـك مثلـك فلـم يسـئن إلى المحسـن، ومـع ذلـك فنحـن سـنقذف إليهـن الطعـام مـن وراء الجـدار، ولسـنا نبغـي منهـن جميـلا. قالـت: لـك الخيـار فيـما تفعلـين، عـلى شريطـة أولا: أن أُعفـى مـن مرافقتـك، وثانيًـا: أن أجنّـب اللـوم بعـد أن أنـذرت. فقالـت إحـدى الأتـراب: لنقنـع بخـلاص نفسٍ بائسـة، ونحـن بعـد في شـغلٍ شـاغل. فقلـت: أعدكـن أن أؤدي واجبـي عـلى أحسـن وجـه، فقالـت إحـدى الأتـراب: وأنـا معـك وعـلى بركـة اللـه.

١٧

لم أُوفّـق بعـد تخليـص ذات الوجـه الغريـب إلى تنفيـذ مـا عزمـت عليـه، بسـبب اشـتغالي بـتربي ذات الأجنّـة. فقـد عرفـت السـبيل إلى إرضائهـا، وظفـرت بثقتهـا. وقـد أظهـرت في بـادئ الأمـر ذُعـرًا مـن ذات الوجـه الغريـب مـا فتئـت أعالجـه إلى أن رضيـت عنهـا، اطمأننـت إليهـا. ومـا أعـرف أن عينـي أحسـتا النـوم لفـرط تفكـيري بتلـك الأسرة البائسـة. وكيـف لعينـي مخلـوقٍ أن تغمضـا، وفي الوجـود أسرة تُعـاني البـؤس والشـقاء، وتبلـو الفسـاد والـشّر؟ إن قلبـي ليتصـدّع حـين أفكـر بـأن فريقًـا مـن الخلـق يتضـوّر جوعًـا، وفي وسـعي أن أسـاعده. إن سـعادتي نقصـت بمقـدار مـا سـمعت عـن شـقاء تلـك الأسرة، وكنـت أحسـبها كملـت بعدمـا وقـع في أسرتنـا مـن الحـب والائتـلاف، وبعدمـا منّيـت بـه نفـسي مـن مسـتقبلٍ سـعيد بخـروج الأجنّـة إلينـا. وكـم حاولـت أن أدفـع الأرق عـن عينـيّ

بانتحال المعاذير، وضرب الفروض. وكم قلت لنفسي: هبك لم تسمعي ما سمعتِ، وهبك لم تصدقي ما قيل لك، وهبك ما رأيت ذلك الوجه الغريب. ولكنني سرعان ما تظهر لي الحيلة، وأتبيّن أني أخدع نفسي، فيعود إليّ الأرق والحزن. وما وجدت مخرجًا سوى أن أحزم أمري، وأنفّذ خطتي. فجئت إلى إحدى أترابي في الصباح، وقلت لها: هيا أيتها العزيزة، فلنحمل ما نقدر عليه من طعام ولنذهب مسرعتين لإسعاف تلك الأسرة. فقالت: لبيك. واسترشدنا بضيفتنا، وذهبنا مثقلتين بالطعام، وسرنا مُجدّات. وكانت هذه أول مرة أخرج فيها من المأوى باختياري لأؤدي واجبًا. سرنا نقطع المسافات البعيدة متجنّبات المخاطر التي كانت تطل علينا من حينٍ لآخر، مهددة بالهلاك. فرأينا في طريقنا عمالقةً جبارين، يسيرون متكبّرين مختالين، وكأن الدنيا تسير وفق رغبتهم، وطوع إرادتهم. وما كنا ننال منهم إلا الشزرات الممزوجة بالكره والازدراء، كأن الذي خلقهم غير الذي خلقنا. ولو كان في وسع أحدهم أن يبطش بنا لما تأخر، فقد كنا أحرص من أن نقترب منهم، وأحر من أن نأمن لهم. ومن أين لهؤلاء العمالقة أن يشعروا بمهمتنا، ومن أين لهم أن يشعروا معنا؟ أليس العمالقة قساةٌ طغاةٌ لا يسألون عما يفعلون؟ ألسنا نحن المخلوقات ضعيفات لا يُؤبه لنا، ولا يُسأل عن حالنا، ولا يُقام لنا وزنٌ في الوجود؟ أليس في العملاق قدرةٌ على البطش دون شفقةٍ ولا رحمة؟ أليس فيه جبروت الطاغي المستبد؟

ومع ذلك فقد بلغنا مأوى تلك الأسرة آمنات. وكان الله أعدل من أن يحول بيننا وبين ما نريد. وما إن أشرفنا على المأوى حتى تخلّفت

ضيفتنا، وتستّرت وراء شجرة، وأشارت بيدها أن هناك ما تريدان. فسرنا حثيثًا، ونظرنا من وراء الجدار. فإذا أمّةٌ من المخلوقات، يكسوها البؤس، ويهزلها الجوع، ويُزري بها الشقاء. دنونا من المأوى وسلمنا، فما رأينا إلا عيونا مفتحة، تحتها أجسامٌ ضامرة وسيقان نحيلة، كأغصان الشجرة اليابسة في فصل الخريف. أعدنا التحية فاستدارت حدقات في تلك العيون أدخلت الرعب في قلبينا، وكادت تربي أن تبتعد، فأخذت بيدها، وقلت لها: لا تحجمي ولا تفزعي. وبادرت بقذف ما حملت من طعام إلى الأسرة من أعلى الجدار، ثم أخذت حمل تربي وقذفت به أيضًا. فتزاحمت مخلوقات كئيبات شرسات تتخاطف الحّبّ في ذعر ونفار. فمنهن من تلتقف الطعام وتفر به إلى آخر الساحة. ومنهن من تلحق بالحاملة وتعمى عن أن ترى ما أمامها، ومنهن من تأكل بشره. ومنهن من تنتع الطعام من غيرها، ولا تطلّف نفسها مؤونة الأخذ بالفم. ومنهن من تجفل حينًا ثم تهجم بلا إجفال. وقفنا نشاهد ذلك المنظر ونشوة الإحسان تسري في أجسامنا وتملؤنا سرورًا.

أما الزوج فكان يظهر مهدود القوى زائغ البصر مضطربًا ينتقل من مكانٍ إلى آخر، في غير وعي، تارة يتناول الطعام وتارة يهرع إلى زوجاته يُشاركهن في طعامهن وتارة يُحدّق إلينا دهشا، وتارة يقفز إلى باب المأوى. وبعد أن فرغنا من قذف جميع ما وسعنا حمله، رفعت صوتي أدعو الزوجات إلى الدنوّ مني. فصاح بزوجاته: الزمن مكانكن، وإياكن والتقدّم. فقلت له: أيها العزيز، لِمَ الذعر؟ لسنا أعداء وإنما نحن

آتيتان لنقدم إليكم الطعام. فقال: ولِمَ ومن أرسلكما؟ فقلت: جئنا من أنفسنا. فقال: وكيف؟ فقلت: كنا نمر بمأواكم فرأينا ما أنتم فيه من فاقة فأردنا أن نساعدكم. فقال: ولم؟ قلت: أيجب أن يُسأل المحسن عن إحسانه؟ قال: ومتى أحسن المحسن من غير قصد؟ قلت: هاك الدليل. وأشرت بيدي إلى الحَب. فضحك مقهقهًا وقال: نِعم الدليل. تفضلا إن كنتما صادقتين، ولكن ألستما مخلوقتين من طينتنا؟ قلت: بلى. قال: ما ألفنا من المخلوقات إلا الشر والبغى. وأنا أتحدّاكما أن تثبتا صدق دعواكما بأن تدخلا إلينا. فقلت: أيها العزيز، شططت في طلبك، وأسرفت في سوء ظنك. فنحن نثبت لك حسن نيتنا بالانصراف عنك لا بالدخول إليك. فرفع صوته في ضحكة مدوّية وقال: منطقٌ جميل. ونظرت إلى زوجاته فإذا هن متراصاتٌ كالموج، بعضه يُقبل وبعضه يُدبر. فعلمت أن حديثي طمأن بعضهن وأفزع البعض الآخر. وأن بينهن من تود لو تستطيع أن تدنو مني، وبينهن من تود لو تستطيع أن تبلعها الأرض فزعًا. فقنعت بأن عملي صاد بعض القلوب، وأدخل فيها الثقة بالإحسان والفضيلة. وقلت في نفسي: لابد من أن تنمو تلك الثقة فتشمل الفريق الآخر. ولابد من أن تنبت الفضيلة في هذه الأسرة فاضلةً تدعو إلى الإصلاح والمحبة، وتُزيل البؤس والشقاء. ولابد من أن تجد من يؤازرها ويشد عضدها، لأن الجانب الذي شعرت بأنه مال نحوي كان كبيرًا.

ولما هممت بالعود قلت لهن: وداعًا أيتها الحبيبات، وكان الله في عونكن. فقال الزوج بصوتٍ أجش: إلى أين يذهب هذا الوجه المليح؟

فنظرت إليه مستحيية وقلت: إلى حيث يدعو الواجب. فقال: ليت الواجب هنا. فرفعت عيني وإذا ابتساماتٌ خفيفةٌ تعلو ثغورًا، ونظرات طائرات تعلو رؤوسًا، فزاد حيائي وعُدت مسرعةً إلى المأوى مع صديقتي، وأنا موزعة بين العجب لما رأيت مما لا يصدّق من بؤس وفاقةٍ وسوء حال، وبين الابتهاج بتأدية الواجب الجميع دون مشقة.

١٨

استيقظنا في صباح هذا اليوم مبكراتٍ على أصوات الصغار تنبعث في رفقٍ وعذوبةٍ من محضر تربنا العزيزة. وما كادت الشمس تملأ الساحة نوراً ودفئاً، حتى خرج معها إلى الوجود خمسة عشر مولودًا يستقبلون الحياة، بأصواتٍ مملوءةٍ بالبشر والابتهاج.

وما كدت أسمع تلك الأصوات حتى غمرني سرورٌ لا حد له. وهل في الحياة أروع من رؤية الأطفال يدبّون على الأرض دبًّا رقيقا، وكلهم طهرٌ وسذاجةٌ وحنان؟ إن هذه الكتل اللينة من المخلوقات تُثير في النفس أعمق المسرّات، وتبعث في الجوانح ما لا يوصف من مباهج وأفراح. إن الخليقة تتراءى لنا عجوزا شمطاء، قاسية القلب، كالحة الوجه، مشؤومة الطلعة. فإذا ما رأينا فيها هذه المخلوقات الصغيرة، انقلب وجه العجوز الشمطاء إلى وجه شابة غانية، ممشوقة القوام، ميمونة الطلعة، مؤنسة العشرة. ولا غرور في ذلك فالخليقة كأمها الطبيعة تمرّ في فصولٍ متعاقبة. وكما أن فصل الطبيعة الزاهر هو الربيع النضر الباسم، ففصل الخليقة اليافع هو هؤلاء الأطفال يظهرون إلى عالم

الوجـود. وكـما أن الطبيعـة تجـدد نشـاطها وتـزكي قوتهـا في فصـل الربيـع، فكذلـك الخليقـة يشـتد سـاعدها، ويغـزر دمهـا في أوقـات الخصـب الإلهـي، الـذي يظهـر في فصـل الـولادة. ومـن مِـن أبنـاء الطبيعـة لا يسـأم إن سـحب الصيـف ذيلـه عـلى أخيـه الخريـف، ولم يـودّع الحيـاة في نهايـة أجلـه. فـكل فصـلٍ لـه أجـلٌ لا يتمنـى أحـدٌ مـن المخلوقـات أن يـراه منسـحبًا عـلى حسـاب غـيره. ولكـن هنـاك فصـلًا واحـدًا تتمنـى المخلوقـات جميعًـا أن يـروه ممـدود الأجـل، هـو فصـل الربيـع. وهـذا موقـف المخلوقـات جميعًـا مـن فصـل الـولادة، فإنهـم ليشـعرون أنـه فصـل البركـة والإنتـاج والخـير العميـم، ويـودّون لـو أنـه يعمّـر مـدى الحيـاة.

ومـاذا أقـول في تـربي العزيـزة، التـي منحهـا اللـه أعظـم الـبركات. ولـئن كنـت أنـا الغريبـة عنهـا شـعرت بـأن حيـاتي أخـذت تتجـدّد برؤيـة تلـك المخلوقـات. فـماذا عـسى أن يكـون شـعور الأم؟

كنـت أول مـن هنأهـا وباركهـا، فرأيـت في عينيهـا نـورًا إلهيًّـا لا يعرفـه إلا العابـد المتبتّـل الـذي يهـب حياتـه إلى اللـه ويصونهـا مـن الخبائـث والآثـام. قلـت لهـا أيتهـا الحبيبـة هـا قـد عوّضـك اللـه عـن تضحيتـك أعظـم العـوض، وهـا أنـا أرى بعينـي مغـزى مـا كنـت تشـيرين إليـه حينـما كنـت ألومـك عـن إمسـاكك عـن الطعـام والـشراب. فقالـت لي: يـا أختـي العزيـزة، إني أحـسّ أني خُلقـت مـن جديـد، ولـو كنـت أسـتطيع أن أُدخلـك في قلبـي لرأيـت مـا لا تصدّقـه عينـاك. إن روحـي تضاعفـت بقـدر مـا ترين مـن أولادي، فأنـا الآن نفـسٌ بخمـس عـشرة نفسًـا، وروحٌ بخمـس عـشرة روحـا، فتصـوّري مخلوقًـا لـه جسـمٌ واحـد وخمـس عـشرة نفسًـا. قلـت: يـا

لـه مـن شـعورٍ جليـل مبـارك. أومـا تشـعرين يـا أختـي بتضخّـم جسـمك أيضًـا؟ فقالـت وهـي تبتسـم: إنـك تريدينني عـلى أن أعـوّض مـا فاتنـي مـن الغـذاء. فقلـت: ليتنـي أسـتطيع أن أحملـك عـلى تغذيـة جسـمك هـذا ليقـوى عـلى حمـل تلـك الأرواح الخمـس عـشرة التـي خُلقـت فيـه. فقالـت: أيتهـا الأخـت لا تعجلي، وأرجـو أن يـأتي اليـوم الـذي تختبريـن فيـه مـا أختـبر. فسـترين حينئـذٍ أن الجسـم لا يتغـذّى بالمـادة وحدهـا وإنمـا تغذّيـه عنـاصر أبعـد مـا تكـون عـن المـادة. قلـت: ولكننـي أعجـب كيـف تقويـن عـلى حمـل نفسـك، ولم يدخـل جوفـك طعـامٌ منـذ مـدةٍ طويلـة. ولـو أمسـك أحدنـا عـن الطعـام بضعـة أيـام لهلـك لا محالـة. فقالـت: هـو مـا تقولـين وسرّه أن الـذي يتفـرّغ للحيـاة الماديـة يحسـب أن المـادة قـوام حياتـه، فـلا يسـتطيع أن يصـبر دونهـا زمنًـا طويـلًا. وأمـا مـن انـصرف عـن المـادة وتفـرّغ إلى مـا هـو أسـمى وأعـز فإنـه يسـتطيع أن يُمسـك عنهـا مـدةً طويلـةً جـدًّا. وهـذا أمـرُ مـردّه التجربـة لا العقـل. فقلـت: أختـي، للـه مـا أجمـل بيانـك! والرياضـة؟ قالـت: أخـرج لأجـل الأعـزاء. فأعنتهـا عـلى الانتقـال مـن المـأوى، والأولاد يتدافعـون مـن حولهـا، وهـم عـلى أشـد مـا يكـون مـن المـرح والنشـاط. وقـد كنـت معهـم كأحدهـم، وإن كنـت أكـبر منهـم سـنًّا. الحـق أن روحـي كانـت مـن سـن أرواحهـم، وأن قلبـي كان مـن سـن قلوبهـم. لعـل هـذا يُعلـل سر شـعوري باندمـاج روحـي بأرواحهـم اندماجًـا تامًّـا. نعـم إني لسـت لهـم أُمًّـا حتـى أسـتأثر بشـعور الأم الـذي تنفـرد بـه دون سـائر الخلـق. ولكـن اللـه يعلـم أني أتحـد معهـم في الـروح اتحـادًا مـا شـعرت بـه في حيـاتي مـع أرواحٍ أخـرى.

ومـا إن خرجنـا مـن المـأوى حتـى هرعـت الأتـراب مهنئـات، فتقبّلـت الـترب العزيـزة تهانيهـن بالشـكر. ولكـن الصغـار مـا ألفـوا الأتـراب. ومـا برحـوا يخرجـون مـن تحـت كتفـي أمهـم ويعـودون إليهـما مـن حـينٍ لآخـر، متراكضـين، متدافعـين كأن في الجـو مـا يذعرهـم. ولكـن فـرح الأتـراب كان عظيـمًا بهـم، وكانـت تهانيهـن معـبّرة عـن فرحهـن أوضـح تعبـير.

مـا أظـن أن تربنـا العزيـزة تناولـت حبـة واحـدة طـول النهـار عـلى كـثرة مـا ضربـت في الأرض وتناولـت بفمهـا الحـب. فقـد كانـت مشـغولة في البحـث عـن أطيـب الغـذاء وأرطـب الهنـات كي يستسـيغ أولادهـا مـا يأكلـون هنيئًـا مريئًـا. مـا كانـت الحبـة تصـل إلى فـم الأم حتـى يهـرع الصغـار يطلبونهـا مدلـين بأنفسـهم، وكانـت الحبـة تسـقط في فـم أحدهـم بعـد كثـيرٍ مـن الرياضـة واللعـب.

أظـن أننـي كـدرت تـربي العزيـزة بكـثرة إلحاحـي عليهـا بـأن أعينهـا عـلى إطعـام أولادهـا. فقـد رفضـت معونتـي محتجـة بـأن الصغـار في أشـد الحاجة إلى الرياضـة التـي تثيرهـا الحبـة الرقيقـة أو الهنـة الرطبـة. ولابـد لهـم مـن حركـةٍ ولعـب لتقـوى أجسـامهم، وتشـتد سـواعدهم. وقـد أظهـر سـائر الأتـراب مـا أظهـرت مـن اسـتعدادٍ للمسـاعدة، ولكنهـا امتنعـت شـاكرة في أول الأمـر متضجـرة في آخـره. ومـا أدري لعـل لهـا عـذرًا فيـما تفعـل، وقـد تعجّلـت لومهـا يـوم كانـت تحتضـن الأجنّـة فأخطـأت ولا أريـد أن أخطـئ الآن مـرة أخـرى.

الحـق أني لا أسـتطيع أن أكتـم شـعورًا مـلأ جوانحـي اليـوم، فقـد تمنّيـت

لأول مرة في حياتي أن أكون كمخلوقٍ غيري. إني ما حسدت مخلوقًا على نعمة، وما نافست أحدًا في خيراته، ولكنني أعترف اليوم أني تمنّيت أن أكون أُمًّا، فيا له من شعورٍ ويا لها من نعمة!

١٩

كانت الأجنة - في أول خروجها - متشابهةً تشابه أغلفتها، بل لكأنها الأغلفة بعينها ضُمَّت إليها رؤوسٌ وسيقان، ونُفخت فيها أرواح، فراحت تدب على الأرض. ويا ليتها ظلت على حالها ذاك، فالتشابه بين المخلوقات يُنبئ عن الوحدة والمساواة، ومتى اتحدت المخلوقات وتساوت ولو في ظاهرها زال سببٌ من أسباب التنافر. ومن يدري فلعل التفريق بين المخلوقات لم يوح به إلا التنافر في أشكالها وألوانها. فحسب ذي اللون الأبيض أن لون الفضة استُعير من لونه، وحسب ذي اللون الأسود أن لون الإثمد سُرق من لونه، وحسب ذي اللون الأزرق أن لون السماء انشق من لونه، وحسب ذي اللون الأخضر أن لون المروج تقليدٌ للونه، ففرح كلٌّ بما لديه. ومن يدري أيضًا فلعل كل ذي لون حسب أنه مميز في باطنه كما هو مميز في ظاهره، فطغى واستكبر، وقام الخلاف بين المخلوقات على أوهى قاعدة، وأسخف دعوى.

إني ما تمنّيت أن يثبت لهؤلاء الأعزاء شكلهم ولونهم إلا إشفاقًا عليهم من مثل هذه الأوهام والأباطيل.

ولكن ما فائدة التمنّي أمام الأمر الواقع. فالاختلاف في الألوان أخذ يتّضح ويستبين يومًا بعد يوم. على أني لن ألقي السلاح، وسأعرف كيف

أعالج هذه الفروق الزائفة، وكيف أطبع هؤلاء الأعزاء بطابع ينسيهم ألوانهم مدى الحياة.

لازمت الأعزاء من أول نشأتهم، وشعرت أني لا أطيق مفارقتهم. وما أدري ماذا شعرت تربي العزيزة نحوي وماذا فكرت بي. أراها توهّمت أني مفطورة على التطفّل والإثرة؟ أم تراها أدركت حقيقة حبي لأولادها، وأني مدفوعة بعاطفة جارفة لا قدرة لي على كبحها؟ يحملني على هذا التفكير ما كنت ألحظه في عينيها من تذمّر أو عدم رضا حينما تراني أبالغ في مداعبة أولادها دون سائر الأتراب. على أن ذلك لم يحملني على تغيير موقفي قط اعتمادًا على ما بيني وبينها من تفاهم وتحابّ سابقين، فهي تعلم مبلغ ثقتي بفهمها ورجاحة عقلها. وما أنسى مواقفها السابقة عند عقد الحلف المعهود وبعد وفاة زوجنا الصالح. ومن جهة أخرى كان شعور الأولاد نحوي مشجعًا على القصد والاحتياط. ولا أبالغ إن قلت إني كنت موضع سرّهم وثقتهم، وأكاد أقول بكل اطمئنان موضع حبهم الصادق. تُرى أأجرح كرامة الأمومة إن قررت أنهم كانوا يلوذون بي في وقت الشدة، ويسرون إلي آلامهم، ويلتمسون رأيي فيما يشجر بينهم من خلاف. لعلهم كانوا يخشون إغضاب أمهم، أو أنهم كانوا يجدون عاطفة الأمومة أرق من أن تقوى على تسوية الخلاف بين أبنائها. أو لعلهم وجدوا في أمهم قسوة الأم المتشددة في تربية أولادها، المبالغة في تقدير المستقبل، وما يستلزم من اعتمادٍ على النفس وجدٍّ وكدّ.. وأيا كان الأمر، فقد عُقدت قلوبنا على المحبة والتفاهم الصادقين الخالصين.

ومضى واحدٌ وعشرون يوما وتربي العزيزة تحيط أولادها بسياجٍ من العطف والحنو والإرشاد ما رأيت له نظيرًا في حياتي. نعم إني بلوت عطف زوجنا الصالح علينا، وما كان يحبونا به من حنوٍّ ونصح. ولكن حب تربي لأولادها لا يُدانيه حبٌّ في الوجود. لقد كانت تؤثر أولادها على نفسها، وما أنسى يومًا ألم بها فيه انحرافٌ في صحتها، فتجلّدت وخرجت مع أولادها كعادتها. ولكن آثار المرض والإعياء كانت باديةً في مشيتها وعينيها. وكم حاولت أن أحملها على التزام المأوى ريثما تستعيد صحتها فلم أفلح. وكان جوابها لي بعد توسّلاتي: يا أختي إن صحتي في صحة أولادي، وسلامتي في سلامتهم. ومع أني أثق بحبك إياهم فإني لا أقوى على تركهم. وكل ما استطعت أن أفعله في ذلك اليوم أن أضرب في الأرض مرشدة إلى مواطن الغذاء الرطب اللين.

والواقع أني كنت أعجب كيف تعيش تربي العزيزة، وكيف تقوى على التماسك بعد مرحلتي الولادة والحضانة. ويزداد عجبي حين أراها نشيطة وقوية، بل في أشد ما يكون من القوة والنشاط. لقد كانت تلمح ظل الكلب من مسافةٍ تدق عن نظر ذي البصر الحديد، وكان دنوّ الظل من المأوى ينفخ فيها قوة النمر. ومن كان يستطيع أن يهزمها أو يدخل الرعب في قلبها. أشهد لو أنها رأت جملًا مقبلًا صوب أولادها لوقفت في وجهه.

قلت لها يوما – وقد تملّكني العجب من اعتدادها بقوّتها – علامَ تُظهرين هذا الحول، وأنت أنثى ضعيفة لا سند لها؟ برقت عيناها وقالت: أنثى ضعيفة! ومن يقول ذلك؟ خذي. وضربت بمنقرها رجلي

وكأنه والله سهمٌ مسموم! ثم أقبلت عليّ معتذرة ووضعت ريقها على موضع النقر، فكأنها والله ما ضربت! سبحانك اللهم لقد جمعت السمّ والترياق في موضعٍ واحد!

لقد كان في عينها بريقٌ نافذ يخترق الحجب. وكان في جسمها انفعالٌ سريعٌ في قوة واحدة. فإذا بَعُدَ واحدٌ من أولادها وتجمّع الباقون من حولها، شعرت كأن خلية من خلايا قلبها فارغة، وانتفضت مذعورةً تبحث عن مكانه. فإذا ما عاد إليها، غاض الاضطراب وتملّكها شعور الطمأنينة.

وفي صباح اليوم الثاني والعشرين خرجت الترب من المأوى مبكرة كعادتها، وخرجت مع سائر الزميلات، وخرج الأولاد معًا وهم يقفزون في نشاطٍ ومرح دأبهم كل صباح. وأراد أحدهم أن يُداعبني فقفز على ظهري، فهممت أن أطرحه خشية أن تتكدّر تربي. ونظرت أمامي لأتبيّن شعورها فإذا هي قد بلغت آخر الساحة. فعجبت كيف تعجّلت سيرها اليوم خلاف عادتها. وما كدت أسير قليلًا حتى رأيت الأولاد يتراكضون في أطراف الساحة، وتربي العزيزة تنقر الحب في نهمٍ عجيب. فنظرت وأطلت النظر ولكني ما صدّقت عيني. فهذا أحد أولادها يدنو ليتناول حبة من أمامها فتسرع وتتناولها قبله. وهذا يشرّق وذاك يغرّب وهي لاهية كأنها ما تعرفهم. فوقفت مذهولة. ترى ماذا جرى لها؟ لقد كانت بالأمس أمًّا بارة عصبية المزاج لفرط حنوّها. واليوم كأنها ما عرفت الأمومة ولا أحست بها. ترى هل أوقع بينها وبين أولادها ما يحملها على هذا التطوّر العجيب؟ ومتى كانت الأمومة

ثوبًا يُلبس في يوم ويُنتزع في يومٍ آخر؟ وكيف يصح أن ينتقل قلبٌ من حال الحب المبرح إلى حال الكره الذميم؟ لم أتمالك أن أسرعت نحو الأولاد فرأيتهم على غير ما توقّعت. رأيتهم يأكلون ويلعبون ويضحكون، كأنهم ما فقدوا أمًّا. أفقدوا هم أيضاً عاطفة البنوّة؟ وهل البنوّة ثوبٌ يُخلع أيضًا!

وفي لحظةٍ مر بخاطري رأي. هذه فرصةٌ سانحةٌ لأقتنصها. لئن فقدت الأم عاطفتها وفقد الأبناء عاطفتهم لتزدادن عاطفتي قوةً وثباتًا. لقد وقع بيدي الآن السلاح الذي طالما تمنّيته. لأحتضن الأولاد ولأكن لهم أمًّا ثابتة العاطفة، وصديقةً مخلصة المحبة. فدنوت منهم وصحت فيهم: أيها الأعزاء، يا فلذات الكبد، ويا حبات القلب، تعالوا إلي. أدنوا مني، إني سأعيش لكم طوال العمر. لقد انعقدت بيني وبينكم المودة منذ خرجتم إلى هذه الحياة. ولن أتخلف عنكم لحظة، اتخذوني لكم أمًّا وأبًا وصديقة. وخنقتني العبرات، وما استطعت أن أتم حديثي. فقد كنت أريد أن أقول كثيراً. ولكنهم فهموا كل هذا الكثير. فالتفوا حولي، ورأيت في عيونهم مثل الذي رأوا في عيني. ومنذ تلك اللحظة شعرت أننا روحٌ واحدة حلت في أجسام متفرقة. ورأيت فيهم ما أنشد من ثقةٍ وطاعة.

٢٠

مضت أيامٌ وتربي العزيزة ممعنة في الانصراف عن أولادها. وقد رأيت في تربي ذات الوجه الغريب عونًا على أداء واجبي نحو الأولاد. فقد دُهشت هي كما دُهشت. وقالت لي: ليتني أستطيع أن أصف لك وجهها وعينيها بوم رأتني وراء الجدار. إنها كانت تحمل جمرتين لا عينين. لقد كان بريق عينيها أشد من اللهب. ولو طالتني يدها لصرعتني. ووالله ما كنت أقدر على النظر في عينيها، فكيف على مقاومتها، وهي اليوم هادئةٌ ساكنة. فقلت لها: يا أختي لندع اللوم، فلعل هناك سرًّا غاب عنا. وكل سر لا بد من أن يُفتضح. ولننصرف نحن إلى شأننا. ولقد كنتِ خير عونٍ لي في هذه الأيام العصيبة، فاستمري في مؤازرتي. فنحن الآن في أشد الحاجة إلى رعاية هؤلاء الأولاد، والتعويض لهم عما فقدوا، إن صحّ للأمومة أن تُعوّض. ونحن ثانيًا مسؤولات عن تربيتهم وثقافتهم. وقد بلوت أنت كما بلوت أنا سرّ الأسرة الفاقدة التربية والثقافة، بل لعل بلاءك أبلغ وأعظم من بلائي. فقالت: يا أختي، لقد خلقك الله طبًّا للبؤساء، ورزقك الجلد والصبر والثقة ومضاء العزيمة. وأنا بعد صنع يديك، فمري وأنا أطوع لك من بنانك. فقلت: يا أختي إن كنت تطلبين رضاي فجنبيني أولا سماع الثناء علي. فإني أكره أن يدخل في وهمي أني مخلوقةٌ فوق المخلوقات. وأعينيني ثانيةً على بثّ المُثُل العليا في هؤلاء الأولاد في رفقٍ وتؤدة. فليس شيءٌ أحب إلى قلبي من رؤية الفضائل تنمو والمثل العليا تزدهر، والمحبة تشيع بين المخلوقات جميعًا.

وما كدت أُتم كلامي حتى صاحت بي: أختي، أنظري هناك. وأشارت بيدها إلى أحد جوانب الساحة. فنظرت وإذا اثنان من الصغار يتصارعان بعنفٍ وقوة كأنهما عدوّان لدودان، أو ضرتان ضاريتان. يبعد الواحد منهما مسافة قدمين ثم يملأ صدره هواء وينفخ جلده، ويوتر أعصابه ويهجم على أخيه يضربه على أم رأسه أو فوق أنفه. فيتلقى ذاك الضربة في جلد ويُسرع إلى الوراء ويتهيّأ للضربة ثم ينقض على ضاربه قبل أن يستعد لتوجيه ضربته الثانية. ثم يفعل الأول ما يفعله الثاني، ويستمرّان في كرٍّ وفرّ، وجول وصول إلى أن تنتهك قواهما وتتفجر جراحهما دمًا، فيمسكا إلى رجعة.

نظرنا إليهما دهشتين. ثم أخذنا نتبادل النظرات في صمت وفزع، كأنما تستشيرني وأستشيرها فيما يجب أن نفعل. وقطع صمتنا صوتٌ يُرسل متقطّعا كأنه صوت ضربات متتابعة على طبلٍ ضخم. فنظرنا صوبه، وإذا تربنا العزيزة تنظر إلى ولديها وتقهقه من فرط الضحك. وكلما اشتد الصراع، وسددت الضربات وغرز الدم اشتد ضحكها وارتفع صوتها. فأخذنا نديرُ أعناقنا مرة صوب الصغيرين ومرة صوب الأم، والمصاولة تحتدم والصوت يرتفع، حتى خشينا أن يهلك الطفلان وأمهما في وقتٍ واحد. صحت في تربي ذات الوجه الغريب: أسرعي وحولي بين الصغيرين. فنفذت نحوهما كالسهم، وكأنما كانت تنتظر مثل هذا الطلب وأمسكت أحد الصغيرين بيديها وأخذته إلى المأوى، وأدخلته فيه، وهو يُقاوم في عنف، والدم يتفجّر من الثغرات العديدة فوق أنفه وأعلى رأسه. ثم أسرعت نحو الثاني وقبضت على

يـده وسـاقته إليّ. ونظـرت إلى الأم فـإذا وجههـا مكفهـر، وإذا هـي تـسرع الخطـى، وتـضرب في الأرض باحثـة عـن الحـب السـمين، كأن لم تـر شـيئا. وددت لـو أدخـل في أعـماق هـذه الـترب في تلـك اللحظـة لأرى حقيقـة شـعورها. إنهـا بلبلـت أفـكاري وحـيّرت عقـلي. لقـد كانـت قبـل أن تلـد مثـال الكـمال والاتـزان. وكانـت في أثنـاء الـولادة والحضانـة مثـال التضحيـة والإخـلاص، والآن مـاذا جـرى؟ أأنهكتهـا أيـام الـولادة والحضانـة واسـتنفدت قواهـا فمُسـت؟ أأوحـي إليهـا أن قـد تـم واجبهـا وانتهـى دورهـا، فمسـحت يدهـا مـن أولادهـا؟ أرأت بعـين الفطـرة أن خـير مـا تصنـع أن ينشـأ أولادهـا معتمديـن عـلى أنفسـهم اعتـمادًا تامًّـا كي تتكـون فيهـم الخشـونة والصلابـة اللازمتـان لمقارعـة الخطـوب والأحـداث؟ أنشـأ بـين عقلهـا وقلبهـا صراعٌ فانتـصر الأول وأضحـت تسـير بعقلهـا دون قلبهـا؟ وإني أعلـم مـا يكـون جوابهـا لـو تطفّلـت بالسـؤال، سـتقول لي بابتسـامة ماكـرة: انتظـري حتـى تصبحـي أمًّـا، وهـذا جـواب سـئمته لكـثرة مـا سـمعته.

جـاءت تـربي بالطفـل وقالـت: انظـري كيـف يتفجّـر الـدم مـن وجهـه، فوضعـت يـدي عـلى وجهـه ومسـحت دمـه وقلـت لـه: لم هـذا الـصراع؟ قـال: دأب يأخـذ الحـب مـن أمامـي فنصحتـه أن يكـف فـما كف. واليـوم فار دمـي ولم أتمالـك أن لطمتـه فلطمنـي وشـجر الـصراع. قلـت لـه: أتقتتـلان من أجـل الحـب؟ قـال: هـو الـذي بـدأ بالعـدوان، قلـت: أي عـدوان هـذا الـذي تبيحـان في سـبيله إراقـة الدمـاء وإزهـاق الأرواح؟ قـال: تعـدّى عـلي ونقـر حبـي. قلـت: حبّـك؟ الحـب مـلء الأرض وهـو مشـاع لجميـع المخلوقـات، ولـو تركتـه يأخـذ الحـب مـن أمامـك لـتركك تأخـذه مـن أمامـه، ولـو فعلتـما

ذلك لوجد كل واحد منكما كفايته وما فوق الكفاية.. يا عجبا لكما! أتجدان الحياة أثمن أم الحب؟ فرفع بصره إلي ثم رده وقال: أيستطيع مخلوق أن يستغني عن الحب؟ قلت: لا. قال: إذن الحب والحياة شيءٌ واحد، ومن أخذ حبّي كأنما أخذ حياتي، فخر في قلبي قوله، وقلت له: ومن علّمك هذه السفسطة التي كانت أعظم بلاء على الخلق منذ ظهروا على وجه الأرض؟ إن الحَب في نفسه لم يكن في يومٍ من الأيام سببا للنزاع بين الخلق، إن النزاع - إن جاز أن يقع- يقع حول ما هو نادر وثمين. والحب ملء الأرض، ولو كوّمته لبلغ عنان السماء. إن النزاع، يا بني، وليد الشهوات الجامحة، ومن ألجم شهوته بلجام القناعة، بنت الفطرة البكر، ما عرف النزاع في حياته قط. إن الحبة أو الحبات التي نقرها أخوك من أمامك ما كانت لترد عليك حياتك لو سُلبت. ولو لم تمنعه أول مرة من أخذ الحب من أمامك لما تولدت في نفسه رغبةٌ فيه، ولما تعدى على ما تزعمه حقًّا لك. فأنت إذن الملوم. فاذهب إلى أخيك واعتذر إليه، ولا تعد إلى مثل تلك السفسطة التي تُرديك وتُرديه معا، فطأطأ رأسه مستحييا وسار نحو المأوى.

٢١

قل الحب في الساحة لأول مرة، ومسّنا الجوع مسًّا رفيقًا في بدء الأمر، ثم مسًّا قاسيًا لاذعًا في نهاية الأمر. فأخذنا نبحث عن الطعام في أطراف الساحة، ونضرب في الأرض حفرًا ونقرًا، وما نسقط إلا على ما يسد الرمق ويمسك النفس من التلف.

وقد عجبت لتربي ذات الأجنة في أثناء هذه الحطمة. فقد كانت أقلنا تحمّلًا لتباريح الجوع، وأشدنا فزعًا من قلة الطعام، وأكثرنا نهمًا وأكلًا. كانت تأكل وتأكل كأنها لا تعرف الشبع، وكأنه كلما أكلت زادت جوعًا. تُرى أفُتح أتون في جوفها يلتهم الأخضر واليابس؟ إن مثلها من ذاق الجوع فيما مضى من حياته وصبر له، كان ينبغي ألَّا يجزع ولا يشره إلى الطعام، ولكن يظهر أن من ابتُلي بالحرمان ابتُلي بالجشع. ولا أنكر أني وسائر العشيرة شعرنا برغبة مُلحّة في الطعام ما ألفناها في الأيام السابقة. وكأن غريزة المحافظة على الحياة كانت نائمة فاستيقظت. أنامها الأمان وأيقظها الخوف. فعلمت بذلك علم اليقين أن حياة المخلوق معرّضة للوساوس والأوهام. يشبعه الوهم حينًا ويجيعه حيناً آخر، ومعدته ثابتة لا تتغير. إن استطاع المخلوق أن يتسلط على شهواته وغرائزه، كان مزاجه أقرب إلى الثبات والاعتدال، وأبعد عن التأثّر بطوارئ الأوهام.

لقد خشيت على الأولاد أن يُفسد الجوع أخلاقهم. فهم أضعف منا أجسامًا، وأرطب عودًا، وأرق إحساسًا؛ وهم لذلك أقل منا تحمّلًا للجوع. ولكنهم ما استخذوا وما وهنوا. وراحوا يضربون في الأرض بجدٍّ ونشاط. ولمّا عزّ الحب جاؤوا يشكون إلي ما يُعانون. قلت: أيها الأعزاء! كيف يمسّكم الجوع وأنتم في منبسطٍ من الأرض لا يحده البصر؟ قالوا بصوتٍ واحد: وهذه الجدران المرتفعة من يزيلها؟ قلت: إن عزيمة الشباب تعلو كل مرتفع، وتقتحم كل عقبة. ابحثوا عن ثغرة في الجدار وانفذوا منها إلى أرض الله الواسعة. فقالوا: لقد عوّدتنا حُبّ

النظـام وأوصيتنـا ألَّا نتعـدى الجـدار. وكنـا في هـذه الأزمـة نشـعر بقـوة تـدكّ الجـدار، ولكننـا أمسـكنا خشـية إغضابـك. فقلـت لهـم بصـوتٍ فيـه نشـوة الظفـر: لقـد علّمتكـم في أيـام الرخـاء القناعـة والنظـام، وأريـد أن أعلّمكـم في هـذه الأيـام السـود التـذرّع بالفتـوّة، والسـعي في طلـب الـرزق. إن مـا مـر ببـال بعـض الخلـق، في يـوم مـن الأيـام، مـن أن العمـل مراتـب، منـه الشريـف ومنـه الوضيـع، ينبغـي أن تنسـوه أنتـم حتـى يُصبـح كأن لم يكـن. إن اليـد الخشـنة المقرّحـة بالعمـل هـي العُليـا، واليـد الناعمـة المطـراة بالـترف هـي السـفلى، فـما كـدت أتـم حتـى تعالـت الأصـوات بقـوة تخـرق السـمع: هيّـا، فنظـرت إليهـم وعجبـت لحناجرهـم الرخـوة كيـف اسـتطاعت أن تُحـدث ذلـك الصـوت المـروّع، ودبّـت فيّ حماسـةٌ لم أعهـد مثلهـا مـن قبـل، فقلـت: قفـوا، ودعـوني أتقدمكـم في فتـح الثغـرة، وأقبلنـا جميعًـا نجـوس خـلال الجـدران المتماسـكة البنيـان، باحثـين عـن نقطـةٍ نقتحمهـا. وفي لحظـاتٍ فتحنـا ثغـرةً خـرج منهـا الأولاد كالسـهام المنطلقـة، وكان ذلـك أول خروجهـم لأكل الحـبّ بعـرق الجبـين.

تركـت الأولاد وحدهـم يسـتمتعون بنعيـم الحريـة، وفضيلـة الاعتـماد عـلى النفـس، ولـذة البحـث عـن الطعـام في أرضٍ واسـعةٍ لا يفـوز بخيراتهـا إلا العامـل المُجـد، وعُـدت إلى السـاحة، فـإذا بالأتـراب يجلسـن مكتئبـات، ومـا كـدت أصـل إلى مقامهـن حتـى بادرتنـي إحداهـن بقولهـا: أيتهـا الأخـت كيـف أبحـتِ لهـؤلاء الصغـار الخـروج مـن المـأوى؟ قلـت: إنهـا مـا عـادوا صغـارًا. وهـذا أوان خروجهـم للسـعي في طلـب الـرزق. فقالـت ثانيـة: لقـد عشـنا في هـذه الديـار طويـلًا دون أن نتعـدى الجـدار، فـماذا جـدّ اليـوم

حتى يُخالف العُرف، ويُثار على النظام؟ وهممت أن أجيب، وإذا بتربي ذات الأجنجة تفتح فمها فأمسكت حتى أعرف رأيها، ولكنها بدلًا من أن تتكلم أخذت تضحك ضحكًا عاليًا، يشبه ضحكها يوم تصارع ولداها. فغاظني عملها، ولم أخش قطع ضحكها، فقلت للتربين وعيناي مسلطتان على تربي الضاحكة: إنكما تسألان عمّا جدّ حتى يُخالف العُرف. لقد جدّ الشباب وجدّ الجوع. وواحدٌ منهما خليق أن يدفع بالمخلوق إلى العمل، فكيف وقد اجتمعا؟ فقالت إحداهن: مثلك أيتها الأخت من يتذرّع بالصبر في أيام الشدة، فكيف فقدتِ الآن صبرك؟ قلت: إن أولادنا يعيشون لزمن غير زماننا هذا. وقد جدّ الآن، وسيجد غدا، من الظروف والأحوال ما يدعو أن يكونوا على أتم استعداد لمواجهتها بعزائم قوية وقلوب لا تعرف الخور والاستسلام. فقالت تربي ذات الوجه الغريب: صدقتِ والله أيتها الأخت العزيزة. إن من ينشأ على الاستسلام والاستخذاء يشبّ عليهما. وقو بلوت شر ذلك في أسرتي. فقد رأيت الجيل الجديد يقفو أثر الجيل القديم، ويفوقه في التزيد من سيئاته. وما رأيت من يفكر في الخروج عن المألوف، فساء حالنا حتى وصل إلى ما نحن عليه من التخاذل والفقر والضعة والفساد. فقالت ترب: ولم لم تثوري على العرف؟ فقالت: لأني كنت أعتقد أن الفرد أضعف من أن يقوى على إصلاح غيره. بل إنه يعجز أحيانًا عن إصلاح نفسه. ولما قُدّر لي أن ألتجئ إلى مأواكن وأكتشف أسراركن وأتبع ما يجري كل يوم صرت أعتقد أن كلمة الخير شجرةٌ مباركةٌ لابد من أن تُنتج عاجلًا أو آجلًا، وأن حياة الركود والاستسلام جُبنٌ لا يقيم عليه إلا الأرذلون من المخلوقات.

كانت صديقتي تتكلم وأنا في حالة من النشوة عجيبة. ولكني لم أُعقّب على قولها بكلمة، كان يسكتني الفرح بالنصر، وما أدري ما كنت أستطيع أن أقول لو دُعيت إلى القول، وقد رحمني مجيء الأولاد يحملون بأفواههم الحب السمين والهنات الطيبات.

كنت أحسب تربي ذات الأجنحة تأبى مشاركتنا، فإذا هي تأكل بشره. لقد أوحي إليها أنها تأكل ممن أطعمت، وتتغذّى ممن غذَّت، ففُتحت شهوتها واندلع منها لسانٌ حاد كلهب التنور لا يُبقي ولا يذر. وما أعرف أنا أكلنا بمثل هذه الشهوة من قبل.

كانت الثغرة التي فتحت بويبًا للفرج، فأضحتِ الآن بابًا من أبواب الرحمة للأسرة جميعها، وما لبث الحب أن عاد كما كان في سابق عهدنا. ولكن الأولاد ما برحوا ينفذون منها إلى أرض الله الواسعة يلتمسون أشياء أجلّ من الطعام، يلتمسون الحرية، حرية الحركة والسير، ويلتمسون الاعتماد على النفس، وفضيلة التعاون في بناء بيتهم الجديد، وأخيرًا يلتمسون الرزق بعرق الجبين، وما شجر بينهم خلاف، ولا استطار شر. وقد أصبحوا الآن نواةً صالحةً لمجتمعٍ جديد.

٢٢

وفيما أفكّر في المستقبل الزاهر السعيد، وأسبح في عالم الآمال والأحلام، إذ تُفاجئني تربي ذات الوجه الغريب بقولها: أيتها الأخت الحبيبة! عزمت على مغادرة مأوانا الطيب. قلت: إلى أين؟ قالت: إلى بيتي القديم وعشرتي القديمة. قلت: وكيف تعودين بعد الفراق الطويل؟

إني أخشى أن يُصيبك ضيم. قالت: إني لا أبالي بما يلحقني. قلت: ولكن أنا أُبالي. قالت: يا أختي، أتبالين بالضيم يلحقك في سبيل المُثل العليا! قلت: كلا والله! قالت: فكيف أبالي أنا إذن؟ ففهمت مقصدها وأنها عزمت على القيام بعملٍ عظيم، وما كان لي أن أصدّها عن عزمها. ولكن عزّ عليّ فراقها. لقد كانت أسرع الأتراب فهمًا لآرائي، وأشدّهن مؤازرةً لي، وأحرصهن على التضحية في سبيل الخير العام. وقد كنت أعول عليها كثيرًا في تهذيب الأولاد. وقد أحبوها بقدر ما أحبتهن. والحُبّ خير وسيلةٍ لنقل الأفكار وبثّ المذاهب.

تملّكني عاملان لفراقها. عامل الفرح لأنها ستحمل رسالة الخير والصلاح لعشيرتها. ومثلها خليقٌ بالنجاح. فقد عرفت فيها مضاء العزيمة والبذل الغالي في سبيل المبدأ. ومتى اجتمعت العزيمة والمبدأ فلا مفر من النجاح. والعامل الثاني عامل الحزن، لأني أفقد صديقةً مخلصةً وعضوًا كريمًا في أسرتنا. قلت: - والدمع ينحدر من عيني- ومتى تغادرين أيتها الحبيبة؟ قالت: بعد قليل. فأنا ما ودّعت الأتراب والأعزاء. وقد كتمت عنهم أمر مغادرتي. قلت: ليرافقك التوفيق، وليُسعدك النجاح. فهل لي أن أكلّفك زيارتنا لنطلع على أخبارك؟ قالت: لن أتأخر عن الزيارة. ولكني عازمةٌ على تنفيذ مبادئنا مهما كلّفني الأمر. ولن أغادر العشيرة مهما بلغت الصعوبات من القوة والصلابة. وربما حجبني ذلك مدة. فإن تأخرت فاعلمي عُذري. فهجمت عليها أقبّلها وأدعو لها. وتعانقنا لحظاتٍ غبنا فيها عن الدنيا. وكأن روحينا انقلبتا إلى سائلين متمازجين.

ورآنا الأولاد على هذا الحال فهرعوا إلينا، وأقبل الأتراب فاجتمعت الأسرة كلها، فقالت تربي العاقلة - وهذه من الفرص النوادر التي تكلّمت فيها بعد الولادة: ما الخطب؟ قلت: جاءت تودّعنا! قالت: وكيف؟ ألم تخبرينا أنها التجأت إلينا؟ قلت: نعم، والآن حنّت إلى عشيرتها. قالت: ألم تقل أن حال العشيرة أسوأ من أن يُحتمل؟ قلت: نعم. فقاطعتني ذات الوجه الغريب قائلة: كنت أعتقد ذلك يوم جئت، ولكني غيّرت اعتقادي. قالت تربي العاقلة: وكيف؟ أجاءك نبأ أن العشيرة صلُح حالها؟ فأجابتها: لا. ولكن صلح حالي أنا. فقالت: عهدناكِ صالحة الحال منذ وفدتِ علينا، ولابد أن يكون ثمة جديد. فقلت: أيتها الأخت. نعم، ثمة جديد. لقد رأت أختنا بعين البصيرة أن شقاء أسرتها يمكن أن يُحسم. قالت: وما سبيل ذلك؟ قلت: أن تعود إليها وتنشر فيها المبادئ السامية، فلا ينبغي أن توجد بقعة في هذه الدنيا محرومة من العدل والمساواة والمحبة والتعاون. ومن أولى بإصلاح تلك البقعة من أختنا؟ فقالت: وهل اتخذتِ ما ينبغي من عدة لمقاومة الأهوال ومصاولة الأحداث؟ فقالت ذات الوجه الغريب: نعم إن عدتي إيماني بصحة مبادئي واستعدادي للتضحية في سبيل تلك المبادئ. فقالت: أيتها الأخت، إن جمعت بين الإيمان والتضحية فقد وفرت جميع أسباب النجاح. فأجابت: أيتها الأخت الرشيدة، لقد شقيت بشقاء عشيرتي مدةً من العمر، وأنا لا أدري أين المصير، أفلا أشقى الآن مدةً أخرى في سبيل تحقيق سعادةٍ ستشمل عشيرتي وتشملني طوال العمر؟ لو كان المخلوق مفطورًا على الوحدة والاستقلال الكلي عن المجموع لصحّ له أن يشقى وينعم مفردًا عن عشيرته، ولكن كيف يستطيع مخلوقٌ أن

يُنشئ قصرًا جميلًا منجّدًا وسط مقبرة غاصة بالأشلاء والجماجم؟ إن من يزعم أنه يستطيع أن يفعل ذلك لأضلُّ مخلوقٍ على وجه الأرض. إنه قد يُلهى بزخرف قصره مدة من الزمن، ولكن في اللحظة التي يخرج فيها رأسه من القصر، بل في اللحظة التي يفتح فيها نافذته ليستنشق الهواء الذي لا غنى له عنه، سيُصاب دماغه بأقصى رجفة في الوجود. إن صدى الصوت الواحد لا يؤنس، إنه يوحش، يزلزل العقل، يورث الجنون.

وما بلغت تربي ذات الوجه الغريب إلى هذا الحد حتى اشتد صوتها واحمرّت عيناها، فآمنت أنها صاحبة رسالة كانت مدفونة في أعماق صدرها، فدوت منها، وقبضت على يدها، وقلت لها: أيتها الحبيبة، إني رجوتك مرة أن تجنّبيني الثناء عليّ خشية أن أصاب بالغرور، وأنا أيضاً أكره أن أثني على غيري خشية أن يتوهّم ما أتوهّم، ولكني مع ذلك لا أملك إلا الثناء عليكِ. إنك تتكلمين بحرارة المؤمن المُلهم. فقاطعتني قائلة: أيتها الأخت أيجوز أن نتقارض الثناء في هذا الموقف؟ بصّريني بعيوبي حتى أصبح خليقة بحمل رسالة الإصلاح، وحتى يرى الخلق أني تأدّبت بمبادئي قبل أن أدعوهم إليها، وحتى يعلموا أن أول مرحلة من مراحل المثل العليا أن يُبرئ المخلوق نفسه من العيوب والنقائص، ولعمري إنها أشق مرحلة. فقلت: أيتها الحبيبة، حالفك التوفيق.

٢٣

طـال انتظـاري ولم تعـد تربنـا العزيـزة، ولم يصـل منهـا خـبر، فاسـتحثني الشـوق إليهـا. فخرجـت وحـدي مسترشـدةً بذاكـرتي. ومـا كـدت أسـير قليـلاً حتـى رأيـت عملاقًـا مـن أولئـك العمالقـة الطغـاة، فتجنبتـه لأني أعلـم أن السـلامة في تجنّـب الـشر. ولكـن حـذري الـذي فُطـرت عليـه ألهمنـي أن أنظـر إليـه بطـرف عينـي، فـإذا هـو يرمقنـي بنظـرات حـداد، فأسرعـت في السـير، وألقيـت عليـه نظـرةً ثانيـة، فـإذا هـو يتبعنـي، فحدثتنـي نفـسي أنـه يُضمـر شرًا، فتباطـأت لأتبـين حقيقـة مقصـده. فـإذا هـو يُسرع نحـوي يطلبنـي، فقلـت في نفـسي أيتوهـم هـذا العمـلاق أن سـاقيه الطويلتـين تتغلّبـان عـلى سـاقيّ الدقيقتين؟ إنـه مخطـئ لأنـه محـرومٌ مـما جُبلنـا عليـه مـن الحـرص والحـذر. وتظاهـرت بالعثـور بحجـر، ونظـرت إلى وجهـه وإذا الـشره يرسـم عـلى فمـه ابتسـامة الظفـر، وإذا هـو يفتـح ذراعيـه كمـن يريـد أن يقبـض عـلى لـصٍّ هـارب. فقفـزت وعـدَوْتُ مسـافةً طويلـة، فتوهّـم أني سـأعثر ثانيـة وأن التعـب سـيجهدني ويوقعنـي بـين يديـه غنيمـةً مستسـاغة. فعـدا وعـدوت، وأخذنـا نتراكـض، وأخـذت أدور بـه يمنـة ويـسرة أعلـو نجـدًا وأنخفـض في وهـدة. أقفـز عـلى جـدار وأنـزل في تربـةٍ شـائكة، والمسـكين يـدور إلى أن غمـره العـرق وتصبّـب مـن جبينـه، فأخـذ منديلـه يمسـح عرقـه، ثـم قـاس مـا بيننـا مـن مسـافة وتوهّـم أنـه يسـتطيع أن يُطلـق سـاقيه في أقـسى سرعـة، فعـدت مـن حيـث جـاء لأعلمـه أن قياسـه مضـل، فعـاد معـي وأخـذت أخفضـه تـارة وأرفعـه أخـرى إلى أن ظهـر عليـه الإعيـاء فالقنـوط. وعندئـذٍ مـددت لـه حبـل الأمـل والتجـأت إلى جـدار أسـتدعي

همّته وأُثير شرهه، فجازت عليه الحيلة وعدا نحوي، وما كاد يدنو حتى قفزت عن الجدار، فتوقّف يلعن حظه، ويفرك يديه كما يفعل الخائب. فأشفقت عليه، وودت لو أنفق جهده في سبيل أجدى عليه. وكم يُنفق المخلوق جُهده في ضلال! ولو صوّب بعض ذاك الجهد إلى ما فيه خيره وصلاحه لما احتاج إلى العدوان على الضعفاء. لو بذل هذا العملاق بعض ما أنفقه في مطاردتي وملاحقتي على حرث أرضٍ لحصد خيرًا كثيرًا، ولو بذله في صنع آلةٍ لباع واشترى. ولكن ما عليّ، فإني خرجت لأداء واجب فلأسلكن سبيلي، وليذهب العملاق حيث شاء.

أخذت أستقصي الطريق فإذا المسافة التي قطعتها طويلة حقًّا وإذا أنا في أرضٍ شاسعة. لقد سرت أكثر مما توهّمت. وقد سار صاحبي العملاق أيضًا أكثر مما توهّم، ولو حسب أنه قاطعٌ هذه المسافة لما حمّل نفسه هذا العناء، ولكنه عملاقٌ يستقصر ما نستطيل، ويستقرب ما نستبعد، فملت ناحية ويممت شطر مرتفع تتوسطه شجرةً كبيرة من شجر البلوط الضخم، فقلت نِعم المقام، ونعم المعتصم. وارتقيت الهضبة وجلست أستظل من حرارة الشمس التي كانت في وسط السماء.

جلست أتأمّل ما حولي. وإذا على مسافةٍ قريبةٍ من أمامي طريقٌ عريضٌ اختطته العمالقة لأنفسها وإذا على يميني ويساري أرضٌ فسيحةٌ تستدير في اتساعٍ حتى تشمل الهضبة، ولكنها تنبسط من ورائي أكثر مما تنبسط على جانبيّ. ونظرت حول الشجرة فإذا حصى كثيرة، وإذا آثار موقد، وبعض الهنات، فأخذت أنقر وأستمتع بالهواء العليل،

ريثما أستجم وأتابع السير إلى تلك الصديقة العزيزة.

واستوقف نظري عملاقٌ يسلك الطريق التي أمام الهضبة فتأمّلته خشية أن يكون صاحبي فيعكر صفو مجلسي. وأخذت أتابعه، وإذا هو عملاقٌ آخر. فحدّقت إليه فإذا عِتِلٌّ مشمخر الأنف مصعّر الخدين منتفخ الأوداج فقلت: أتغدّاه قبل أن يتعشّاني. وجمعت حولي حصى دقيقًا، فما كان يظهر حتى حصبته فوقعت الحصاة على زجاجة تستر عينه. ولولاها لفقأت عينه، فوقف فجأة مذعورًا، وأدار وجهه صوب الشجرة ونظر، فلم يرَ أحدًا. ويظهر أنه استصغرني فتابع سيره، فأخذت حصاةً ثانية وسددتها إلى أنفه الضخم الأحمر، وأنا أرجو أن تفرغ ما فيه من كبرياء وطغيان، فيعود أنفه كما يجب أن يكون من الوسامة والاعتدال والتواضع. وما كادت تقع الحصاة حيث صوّبت حتى صاح: وا أنفاه، فلم أستطع أن أحبس نفسي عن الضحك، فارتفع صوتي ودوّى في أذنيه الطويلتين، فنظر إليَّ دهشًا، وقال بصوتٍ مرتفع يستر ذعره: من هناك؟ وهممت أن أقول له: أنا؛ لأعلمه أن الاستخفاف بخلق الله الضعفاء مسلكٌ شائك. ولكني صمت لأختبر شجاعته. ولما لم يسمع جوابًا أخرج منديلاً ووضعه على أنفه الدامي وهرول... إلى أين أيها العملاق؟ فما سمع هذه الجملة حتى التفت برأسه دون سائر جسمه، وساقاه من تحته ترتعدان كأنه أمام أسدٍ مفترس، إلى أين أيها العتلّ؟ وهنا أعاد رأسه إلى الأمام وشرع يعدو كأنه في سباق، فأرسلت ضحكات كانت تقع على رأسه كصوت الرعد في الليلة الحالكة.

اكتفيت بهذا المشهد، وجلست أتأمل طباع هذه العمالقة الغريبة

الأطـوار. تـرى الواحـد منهـم إن اسـتضعف مخلوقًـا مـن مخلوقـات اللـه يسـير في أمـنٍ واطمئنـان، تأخـذه حميـة الـشره، وتتملّكـه شـهوة الطمـع فيطـارد فريسـته في قسـوة الباغـي. فـإن اسـتخذت الفريسـة انقـض عليهـا وافترسـها، وإن أبـت عليـه احتـال لهـا، وإن طالـت عليـه تصـبّر إلى حـين. وإن كان المخلـوق عزيـز الجانـب معتصـمًا بقوّتـه طلـب العمـلاق الأمـان، وتظاهـر بالقناعـة بالحرمـان. وإن صاولـه المخلـوق وبـادأه العـدوان اسـتخذى العمـلاق وولّى هاربًـا.

إن الحكـم عنـد هـؤلاء العمالقـة لا يقـوم عـلى المُثُـل العليـا، ولا عـلى المبـادئ الصحيحـة، وإنمـا يقـوم عـلى أسـاسٍ واحـد: هـو القـوة. ولـو كان الخالـق يعلـم أن خلقـه سيسـتغلون حكمتـه في خلقـه الكبـير والصغـير، والقـوي والضعيـف، لسـوّى خلقـه عـلى غـير هـذه الصـورة، ولجعلهـم أمّـةً واحـدةً متسـاوية الأجسـام والأحجـام والعـدة والقـوى. ولكـن اللـه يعلـم أن العمالقـة لا تعـدم حيلـةً للخـروج عـن كل تسـوية يرتئيهـا. ولذلـك خلـق، وحمّـل كل مخلـوق وزره عـلى كتفـه.

لسـت مكلفـة أن أبلـو العمالقـة، ولسـت منهـم وليسـوا منـي، وإنمـا طـاردني واحـدٌ منهـم وأخرجنـي عـن قصـدي، ودفعنـي إلى هـذا الاختبـار دفعًـا، ولسـت أحـب التـمادي في الـشر، وإن أركبتـه بالقـوة.

تركـت ذلـك المجلـس الأنيـق وهرعـت أبحـث عـن مسـكن صديقتـي العزيـزة، وجـددت في السـير متجنبـة كل عمـلاق؛ وبعـد سـيرٍ مضـنٍ بلغـت المسـكن، فـسرت نحـوه بحـذر، وجلسـت تحـت السـور قليـلًا أسـترق

السمع، وإذا صوت غناءٍ يرتفع برفقٍ وعذوبة. يالله! أتراهم ينشدون فرحين؟ أترى ذلك من عمل تربي العزيزة! وقفت ونظرت فإذا هم في حلقاتٍ يرقصون، وإذا في وسط حلقةٍ كبيرة صديقتي تغنّي فرحة، ومن حولها يرد عليها. ليتني أستطيع أن أقفز لأكون في وسطهم أشاركهم في غنائهم! ليتني واحدةً منهم ولو مدةً قصيرة!

هممت أن أقفز فردّني عقلي. ورائي أولادٌ ينتظرون، ورائي أترابٌ يستفقدون، ومن يضمن لي العودة إن دخلت؟ ولِمَ أضع نفسي في هذا المأزق؟ ألم يكن غرضي أن أتحقق من أمرِ صديقتي العزيزة؟ لقد بلغت الآن ما أريد، إنها سعيدة، ومددت عنقي ونظرت ثانية، وإذا الغناء يشتد في انسجامٍ ورفق، وإذا السعادة تعم الأسرة جميعًا، وإذا صديقتي تمعن في الغناء. نظرت إليها نظراتٍ سريعةً مودعةً، وقلبي ينفطر شوقًا للقائها... ولكن إلى المأوى.. إلى الواجب فلأسرعن، وأنتِ أيتها الأخت الحبيبة لتحرسك العناية الإلهية، وليبرّد الله شوقي بلقائك.

٢٤

قصصت على أترابي ما رأيت في أثناء زيارتي لصديقتي ذات الوجه الغريب، فوقع في قلبهن من السرور مثل ما وقع في قلبي لتوفّق صديقتنا العزيزة في إصلاح عشيرتها. ولُمنني لأني ما دخلت مأواها.

أما ما وقع لي مع العمالقة فقد أثار سخطهن وحنقهن، فقالت تربي العاقلة: عجيبٌ أمر هذه المخلوقات كيف تتعاشر وتتعامل، وكيف ينجو الضعيف من أنياب القوي؟ لابد أن تكون حياتهم سلسلة من

الفتن والحروب، قالت ترب: لعلهم -وهم عمالقةٌ متساوون في القوة- يتكلّفون السلم، ولا يقع بينهم ما نتوهّم من قتالٍ وصراع، فقلت: ما أظن الأمر كما تقولين أيتها العزيزة، لأن الضعفاء موجودون في كل جيلٍ من الخلق، وكل مستقرٍّ من الأرض، ولابد أن يوجد بين العمالقة القوي والضعيف، الطموع والقنوع، الظالم والمظلوم، وإذن لابد أن تكون الفتن والحروب بينهم مستمرة.

فقالت تربي العاقلة: ترى على أية قاعدة يقوّم هؤلاء المخلوقات بعضهم بعضًا؟ لشد ما أحب أن أعاشرهم مدة لأختبر بنفسي أحوالهم، فقلت: كثيرًا ما يُغني النظر عن التجربة، والمخلوق أعجز من أن يُحيط بكل شيء ويميز كل شيء؛ ولذلك يستعين بالقياس على إدراك ما لم يَرَ ومحاكمة ما لم يختبر، قالت ترب: وكيف ترين يقوّم بعضهم بعضا؟ أترين أن ليس ثمة قاعدة؟ قلت: لاشك في أن عندهم قواعد، قالت: وماذا تكون؟ قلت: قد يقوّم بعضهم بعضًا بالقوة، فيقولون: فلان بقدر اثنين أو ثلاثة أو أربعة.

وقد يقوّم بعضهم بعضًا بالجاه، فيقولون: فلانٌ جاهه ضعف جاه فلان أو ضعفاه، أو ثلاثة أضعافه.

وقد يقوّم بعضهم بعضًا بالفضائل، فيقولون: عند فلان أربع فضائل، وعند فلان خمس فضائل، وعند فلان ست فضائل، وعند فلان جميع الفضائل.

وقد يقوّم بعضهم بعضًا بالمال. فيقولون: فلان يساوي كذا وكذا مالًا.

وقـد يقـوّم بعضهـم بعضًـا بالرذائـل، فيقولـون: فـلان أقـدر الخلـق عـلى الريـاء، وفـلان أقدرهـم عـلى النفـاق، وفـلان أقدرهـم عـلى الغـش، وفـلان أقدرهـم عـلى الكـذب، وفـلان أقدرهـم عـلى إيـذاء الخلـق، وفـلان أفسـد خلـق اللـه، وفـلان خائـن، يبيـع دينـه ودنيـاه بأقـل ثمـن، وفـلان جمـع نصـف الرذائـل، وفـلان أحـاط بهـا جميعًـا. وهكـذا.

وقـد يقـوّم بعضهـم بعضـاً بالعقـل، فيقولـون: فـلان ربـع عاقـل، وفـلان كامـل العقـل.

وقـد يقـوّم بعضهـم بعضًـا بالعلـم. فيقولـون: فـلان ربـع عـالم، وفـلان نصـف عـالم، وفـلان كامـل العلـم.

وقـد يقـوّم بعضهـم بعضًـا بالنسـب. فيقولـون: فـلان شريـف، وفـلان حسـيب، وفـلان عصامـي، وفـلان هجـين، وفـلان مقـرف.

وقـد يقـوّم بعضهـم بعضًـا بالـوزن. فيقولـون: فـلان وزنـه كـذا وكـذا رطـلًا وهكـذا.

فقالـت تـرب: مـا أكـثر موازينهـم! فقالـت تـربي العاقلـة: أليسـو عمالقـة؟ فقالـت الـترب: ألكونهـم عمالقـة يجـب أن تكـثر موازينهـم؟ فقالـت تـربي العاقلـة: للعمالقـة أحـكام. قلـت: بـل لهـم ظـروف وحـالات هـي التـي اسـتدعت كـثرة الموازيـن. فقالـت الـترب: كيـف تختلـف الموازيـن باختـلاف الأحـوال؟ فقلـت: عندمـا يكونـون في حالـة توحّـش وعـدوان يقوّمـون بميـزان القـوة. وعندمـا يكونـون في غفلـة عقليـة وخلقيـة يقوّمـون بالمـال. وعندمـا

يكونـون في حالـة انحـلال واضمحـلال يقوّمـون بالرذائـل. وعندمـا يكونـون في حالـة ارتقـاء وازدهـار يقوّمـون بالفضائـل. وعندمـا يكونـون في حالـة سـموّ في الفكـر والعقـل يقوّمـون بالعقـل وهكـذا.

فقالـت الـترب: عجبًـا لهـم! وكيـف يقبلـون بهـذه المتناقضـات! فقلـت: أيتهـا العزيـزة، إن الضـلال لا يأتيهـم مـن خـارج إنـه يأتيهـم مـن أنفسـهم. إن الحالـة التـي يكونـون عليهـا هـي التـي تفـرض عليهـم المتناقضـات فيقبلونهـا صاغريـن. ألسـت تريْـن أن الجائـع لا يفكّـر إلا في الطعـام، والخائـف لا يفكّـر إلا في الأمـان، والمهـزوم لا يفكّـر إلا في النجـاة؟ فالجائـع يـرى الشـبع مثلـه الأعـلى، والخائـف يـرى الأمـان أمنيتـه الكـبرى، والمهـزوم يـرى النجـاة غرضـه الأسـمى. ويـروْن كل مـن كان حائـزًا مـا فقـدوه أسـعد خلـق اللـه حـالًا، وأكملهـم خَلْقًـا وخُلُقًـا، ويضعونـه في المرتبـة العليـا، ثـم ينحـدرون درجـةً فدرجـة. وهـذه هـي فتنـة الحـالات التـي تـورث تعـدّد الموازيـن. فقالـت تـربي العاقلـة: أو ليـس يصـح أن يكـون للعمـلاق قصـد مـن تعـدّد حالاتـه؟ قلـت: إن كان العمـلاق مختـارًا في وجـود تلـك الحالـة، فنعـم. وإن كان مقهـورًا، فـلا. قالـت الـترب: نعـم قـد يُفـرض عليهـم أن يزِنـوا النـاس بغـير موازينهـم. فيضعـون الجاهـل فـوق العالِـم، والشريـر فـوق الفاضـل، والظـالم فـوق العـادل، والجاحـد فـوق المؤمـن، والخائـن فـوق المخلـص، والقاعـد فـوق السـاعي.

فقالـت: أف.... فقلت: ولكن هذه حالات لا تدوم....

فقالـت تـربي العاقلـة: ولـو قـدّر لـك أن تضعـي ميزانًـا صحيحًـا دقيقًـا،

ثابت الأوزان، فكيف تقوّمين؟ قلت: أيتها الأخت، ليس المخلوق جسمًا مسطّحًا حتى نزنه بميزانٍ واحد. فقالت ترب: إذن تُجوّزين تعدد الموازين وتُناقضين نفسك؟ قلت: لا. إن المخلوق في نظري جسمٌ ذو حجمٍ يقوّم كسائر الحجوم، بالطول والعرض والعمق. فقهقهت الترب طويلًا. فقلت: رويدك أيتها الأخت، لا أقصد حرفية ما أقول. أقصد إن للمخلوق ثلاثة جوانب. جانب هو العقل، وجانب هو الخلق، وجانب هو الإشعاع.

إن العقل منحةٌ عظيمة. ولكن العاقل إن تجرّد من الخلق فعقله كالعدم. والعكس بالعكس. أما الإشعاع فمثله واضح من الأضواء. فضوءٌ يشع لمسافة ميل، وضوءٌ يشع لمسافة بضعة أميال، وضوءٌ يشع لمسافة أميالٍ كثيرة. فالعاقل العظيم الخُلق هو فاضل بنفسه ولنفسه، ولكنه يُقاس في نظري بإشعاعه. فإن كان يفيد أسرته فهو نوع. وإن كان يفيد عشيرته فهو نوعٌ آخر. وإن كان يفيد أمته فهو نوعٌ ثالث. وإن كان يُفيد الأمم المجاورة فهو نوعٌ رابع. وإن كان يفيد الخلقَ جميعًا بلا استثناء فهو أشرف الأنواع وأفضلها. وإن تجرّد من الإشعاع كان كالركيزة في المنجم لا تضرّ ولا تنفع.

فقالت ترب: أو يكون هذا الميزان ثابتًا في مختلف الحالات؟ فقلت: نعم، هو في نظري ثابت، قالت ترب: أهذا واقع؟ وما كدت أفتح فمي حتى مر بنا شيخٌ عملاق، ففزعت الأتراب وأسرعت إلى المأوى، وظللت في مكاني... ثم تذكّرت الأعزّاء فصحت بهم أن ادخلوا إلى المأوى، فدخلوا، وما أبرئ نفسي من الخوف، فأنا أضعف من أن أرد القدر

إذا أقبل. ومر الشيخ بسلام، ولكن الخوف وسوس في صدري. فهذه أول مرة يدنو شبح العمالقة من المأوى، وأول مرة نستشعر الخوف في حمانا، ومن لنا اليوم وقد فقدنا الزوج، وعزّ النصير؟

٢٥

ظللنا بعد ذلك الحادث الذي وقع لي مع العمالقة أيامًا لا شغل لنا إلا ذكر العمالقة، وتصوّر أحوالهم. ويظهر أن الأتراب استمرأن الحديث عنهم، ورغبن في الإطالة والتفصيل، وكنت في أحاديثي عنهم أعتمد على القياس والاستنباط. وكان الأتراب يعجبن لما أقص عليهن حتى يذهب بهن العجب إلى حد الاستنكار والاستهجان. ولا أدري لم كانت تربي العاقلة أشد الأتراب عجبًا، وأكثرهن شكًّا بما أروي من غرائب أطوارهم. ولعلها كانت تقدر أن عقول العمالقة على قدر أجسامهم، ولا يجوز أن يسكن الجسم الضخم إلا العقل الضخم، وهذا ولا شك وهم، ففي عالمنا عمالقة آخرون، أصحاب قاماتٍ طويلة، وأجسامهم مهيبة كالجمال والبغال والحمير والخيل وما إليها، وليس فيها ما يدل على ضخامة عقولها. ولما ذكرت ذلك لتربنا العاقلة قالت: وما أدراكِ أن الجمال والبغال والحمير ليس لها عقول أعظم من عقول العمالقة؟ إن ما تذكرين من غرائب العمالقة وترّهاتهم وضلالاتهم ليحطمهم عن قدر العمالقة الآخرين، فقلت: أيتها الأخت، إني لا أحدثك عن خبرة عامة شاملة، وإنما أعتمد على القياس والاستنتاج، ومن يدري؟ لعلني إن زدت اختبارًا زدت ثقةً بصحة ما أقول، ولكن ألست ترين أن العمالقة هم الذين يُسخّرون الجمال والبغال والحمير وما إليها لأنفسهم؟ ولو

كانوا دونها عقلًا لما سخّروها، بل لكان الأمر بالعكس. فقالت: أنت تحيلنني على ما رأيت، وأنا ما رأيت شيئًا، وما أدري أيركب العملاق الحمار أم يركب الحمار العملاق، ولذلك لا أستطيع أن أثبت أو أنفي، ولكني أذهب مذهبك في القياس والتقدير، ولا يمكن لعقلي أن يتصوّر أن العمالقة الآدميين أكبر عقلًا من تلك التي ذكرت. قالت: إنك يا أختي طيبة القلب، كبيرة النفس، ولو قُدّر لكِ أن تخرجي من مأواك هذا لرأيت العجب العجاب، فقالت: نعم إني لم أخرج من مأواي هذا قط، ولشدّ ما أحب أن أضرب في الأرض، وأخبر سلوك الخلق وطبائعهم. قلت: ليتنا نصطحب في جولة، قالت: ولكني لا أجرؤ على الخروج، وأرى طرفي يرتد حسيرًا حين يرتفع إلى مخلوقٍ من المخلوقات خارج المأوى. قلت: أيتها العزيزة، لم يخلقك الله للمأوى، ولو شاء ذلك لخلقك معطلة الحركة، ولكنه ركّب فيك قوة السير والسمع والبصر، لتمشي وتري وتسمعي. وإن التزام المأوى تعطيلٌ لقوى ركّبها الخالق فيكِ، بل هي جحودٌ لنعمته، وثورةٌ على مشيئته. قالت: يا أختي، أتقولين هذا وقد بلغتُ من السن عتيّا؟ قلت: أقول هذا ما دام في جسمك دمٌ يدفعك إلى الأمام والوراء. قالت: ولكن العادة هي التي تحكّمت. قلت: ليس للعادة حكمٌ مع وجود مشيئة الله، وفطرةٍ سليمة، فالله خلقك لتضربي في الأرض، والفطرة تكوّنت وفق المشيئة الإلهية، وكل عادةٍ تخالف المشيئة والفطرة فاقذفي بها إلى جهنّم. قالت: لله ما أبرعك في الإقناع! وأحسب لو أن الخلق يسيرون حسب ما توحيه إليهم عقولهم وفطرتهم لانقلبت نُظُمهم وتقاليدهم جميعًا رأسًا على عقب. تُرى كيف يسير الخلق الآن؟ أبحكم عقولهم وفطرتهم أم بحكم

فطرتهم دون عقولهم، قلت: إنهم تارة يسيرون وفق العقل والفطرة، فتستقيم أمورهم، وتارة وفق العقل دون الفطرة، وتارة وفق الفطرة دون العقل، وتارة ضد الفكرة والعقل معًا! ولذلك فهم في تناقضٍ واضطرابٍ وسوء حال، قالت: أيتها الأخت، لشد ما أحب أن أرى الخلق يسيرون بأحكامك مدة من الزمن. لأرى كيف يكون حالهم. قلت: ليت... وليت لا تُغني، إنما يُغني العمل. والتفتنا صوب الساحة، وإذا الحب يكثر. فقالت: أبشري خيرًا، لقد بدأ الخلق يسير وفق هواك.

وأوينا إلى مضاجعنا مبكّرين، وقد نعمنا بالطعام والشراب. وفي صباح اليوم التالي شعرنا بحركة غير مألوفة خارج المأوى، ففزعنا. وبعد قليلٍ فُتح الباب، وإذا بعملاقٍ يدخل المأوى وفي وجهه شرٌّ مروّع. فتراكضنا في المأوى وهبّ الأولاد من نومهم مذعورين أشد الذعر. وجالت يد العملاق فينا جولة الإرهاب. فقبضت على أترابي جميعهن الواحدة بعد الأخرى. فصحنا وصاح الأولاد، والعملاق منصرفٌ عنا. وبعد أن خرج نفر الأولاد مسرعين نحو الساحة، وخرجت وجسمي يرتعد من الذعر. وأخذت أتفقد الأعزاء واحدًا واحدًا، فإذا هم جميعاً في الساحة فجمعتهم وحاولت أن أُزيل ذعرهم ولكن من أين للمذعور أن يُطمئن المذعور؟ ومن أين للموتور أن يُواسي الموتور؟ لقد حلّت بنا مصيبةٌ تجل عن العزاء والتواسي. تجلّدت في ساعة يعز فيها التجلّد، وتصبّرت في ساعة لا يُجدي فيها الصبر. قال الأعزاء والدموع تنهمر من عيونهم: إلى أين سيقت أمنا ونساؤنا؟ فأخذت أترضاهم بذكر ألطف الاحتمالات وقلت: لعلّهم نُقلوا إلى مأوى آخر. فقالوا: فكيف يُشتَّت الشمل،

ويُحال بين الأم والأبناء؟ وأيًّا كان المكان الذي يُسقنَ إليه فإنهن لن يعدن إلينا. قلت وقد أعجزتني الحيلة وخانني المنطق: ذلكم ظلم العمالقة، ولا حيلة لنا سوى التذرّع بالصبر والركون إلى القدر.

لله ما أقسى الدهر! هذه أسرة آمنةٌ وديعة، تبطش بها يد عملاق فتهد أركانها وتزلزل كيانها، وتورثها الحزن والألم في غمضة عين. ماذا جنت هذه الأسرة حتى تحل فيها النقمة والبطش؟ وماذا اقترفت من ذنب حتى تُعاقب أقسى عقاب؟ إني وحدي أعلم أين سيق الأتراب. فقد لمحت في عين العملاق شرًّا يشبه بريق السكين الحادة. إن القتل جريمةٌ لا تُغتفر. ليتني صدقت تربي العاقلة حين قالت إن عقول الجمال والحمير والبغال أكبر من عقول أولئك العمالقة. ليتني صدقتها فأرضيتها وأرضيت الحقيقة التي نطقت بها. أنا التي بلوت العمالقة، ولمست مساوئهم ووقفت على حقيقة حالهم أُخالف تربي العزيزة في الحكم عليهم وهي التي ما بلت شرّهم، ولا ذاقت حلوهم ومرّهم! أنا التي أعتمد على القياس والاستنتاج أناقض نفسي بنفسي وآبى أن أقبل حكمًا تدعمه المشاهدة ويُؤيّده الاختبار.

وامصيبتاه!.. واثكلاه!.. أحقًّا سنبيت في مأوانا والأتراب في غير دنيانا؟ أي مأوى يسعنا؟ وأي دنيا تتسع لأحزاننا وآلامنا؟ أي ماءٍ يُستساغ؟ وأي طعامٍ يُستمرأ؟ بل أي حياةٍ تُطاق بالفراق وشتات الشمل؟ إني أحس أن جلدي لا يسعني، وأن دمي يكاد يتفجّر في عروقي.

من لهؤلاء الأولاد؟ ومن لي نفسي؟ ولكن، على عاتقي مسؤولية لا

أستطيع أن أغفل عنها، لقد ألزمت نفسي المحافظة على هؤلاء الأعزاء، وأنا الآن أشعر بأن مسؤوليتي تضاعفت، فقد وُضع في يدي وحدي مصير أرواحٍ بريئة.

إلى المأوى يا أعزائي لقد أقبل الليل، إلى المأوى، ففي ظلمة الليل سكنٌ للثكالى واليتامى، إلى المأوى من شر الزمان.

٢٦

اشتدَّ ألم الأولاد لخطف الأتراب وانقلب إلى حقدٍ حاد. والحقد يتفجّر في صورة عداءٍ أو صراع. وكم مرة حاولت أن أعالج الألم لأمنع تطوّره إلى صراعٍ أو عداء، لأني أعتقد أن كلا هذين المظهرين يخرجهما الطغيان من حكم العقل إلى حكم العاطفة. وويل للعاطفة إذا تحكّمت في شر. فإنها تبيح كل ما يأباه الخلق والمنطق والقوانين العامة. وقد كانت سؤرة الفتوة تعين على تأصيل الحقد. ولم تكن الأيام لتعينني على تخفيفه؛ لأن آثار الأتراب في المأوى والساحة كانت أبلغ من أن تُمحى، ولأن الحقد مرضٌ عضال يزداد مع الأيام.

ويظهر أن مبالغتي في معالجة الحقد دفع فريقًا من الأولاد إلى التشاور سرًّا في أمرهم، والاتفاق على الانتقام من العمالقة. واستطاع الأولاد جميعًا أن يجمعوا رأيهم ويوحّدوا خططهم، وزعّموا عليهم واحدًا عُرف بأنه أكملهم عقلًا وأشجعهم قلبًا، وأجملهم خلقًا. إن هذا الذي زعموه يُعطيك وجهه صورة فتى رشيق فاتن كامل الحسن. ويلاه من عينيه إن نظر! وويلاه من طلعته إن أقبل! وويلاه من صورته إن تغنّى

أو تحدّث! أما عقله وقلبه فكعينيه صفاءً وحدة ونفاذا.

وفي الصباح الباكر فتح الأولاد باب المأوى في غاية الرفق والاحتراس، وأخذوا يتسلّلون منه الواحد تلو الآخر. وهم يظنّون أني غافلةٌ عنهم بالسبات العميق. وما دروا أني اتخذت من عيني ديدبانًا عليهم، وأني شعرت بحركاتهم منذ فتحوا الباب إلى أن خرجوا. فارتبت في أمرهم، ولحقت بهم قبل أن يصلوا إلى الثغرة المعهودة التي أقاموها في الجدار. وما رأوني حتى بُهتوا. فعدوت إلى الثغرة وسددتها بجسمي وقلت: إلى أين أيها الأعزاء؟ فلم يجيبوا. قلت: أخبروني إلى أين تذهبون لأذهب معكم، أو يصح أن تغادروني وراءكم في المأوى؟ فاحمرت وجوههم خجلًا. ولكنهم التزموا الصمت. فأقبلت نحو زعيمهم وقلت: أيها الحبيب، ما تعوّدت أن تكتموني أمرًا، وما تعودت أن أكتمكم أمرًا. فأخبروني الآن إلى أين تذهبون في هذا الصباح المبكر؟ فقال: ليس في كتماننا أمرنا ما يحط من مقامك عندنا. فأنتِ أيتها العزيزة لنا في مقام الأم والأب. وما كنا لننسى صنائعك ولكننا نريد أن نقضي حاجة دونك. وسنعود إليك قريبا. فقلت: إن كنتم تتخذونني أبًا وأمًّا فلا ينبغي أن تبرموا أمرًا دون إطلاعي. ولست أبيح لنفسي أن أخالفكم فيما عزمتم عليه إن كان فيه صلاحكم. فقال أحد الأولاد: لنطلع أمنا على ما عزمنا عليه. وسرت كلمته بسرعةٍ في رفاقه، فقالوا جميعًا بصوتٍ واحد: نعم لنطلعها. فتقدم الزعيم وقال: أمنا العزيزة، عزمنا على الانتقام من أولئك العمالقة الطغاة الذين انتهكوا حرمة بيتنا، ووترونا في المستضعفين منا، ولو أنهم تعدّوا علينا لما بلغ الجزع والألم هذا المبلغ. فقلت: هل

فكرتم في قوة العمالقة؟ قال: فما ينبغي للموتور أن تمنعه قوة خصمه من الثأر، إن العمالقة سلبوا نفوسًا عزيزة وتركوا نفوسًا رخيصة، وبذل الرخيص في سبيل الغالي ما يحتاج إلى فكر. فقلت: وإن قضى عليكم العمالقة فستخسرون خسارةً مزدوجة. قال: لا خسارة في سبيل أداء الواجب. قلت: ألا تريدون أن تؤدبوا العمالقة لتقتلعوا من نفوسهم أصول البغي والعدوان؟ فصاحوا جميعًا: بلى. قلت: إن عملكم سيقوي فيهم العدوان. فظهرت الدهشة على وجوههم، وقالوا: كيف؟ قلت: لأن مقابلة الشر بالشر والظلم بالظلم والعدوان بالعدوان ستؤدي إلى نتيجة واحدة لا شك فيها. قالوا: ستؤدي حتمًا إلى الانتقام، وهو النتيجة التي نريدها. وأثارت كلمة الانتقام نفوسهم وتدافعوا يطلبون الثغرة. فقلت: رويدكم أيها الأعزاء! لن تكون النتيجة الانتقام، إنها ستكون إعلاء شأن الظلم والطغيان. فالتفت بعضهم إلى بعض دهشين وقالوا: كيف؟ قلت: ستكون النتيجة المحتومة أن يصرعكم العمالقة، وعندئذٍ يكون الظفرُ للقوة. أفتريدون أن تتحكم القوة في الخلق؟ أم تريدون أن يكون الحكم للحق وحده؟ ومن جهةٍ ثانية إن علاجكم الذي ترتؤونه لا يُجديكم نفعًا، ولا يوصلكم إلى حق، لأن العمالقة ستُستَفز قوتهم وتُستثار حميتهم، فيمعنون في البغي والعدوان، فتكونون قد أعنتم الظلم على غيركم من الخلق من حيث أردتم أن تكافحوه. فرأيت على وجوههم أمارات الهدوء، فقلت: إن كنتم تريدون أن تنتقموا حقًّا فأنا معكم. فقالوا جميعاً: نعم نريد... نريد... فقلت: فاسلكوا السبيل الذي أرسمه لكم، فقالوا: ما هو؟ قلت: هو سبيلٌ واحدٌ لا ثاني له. هو أن تنشروا المبادئ السامية التي تصوّر الطغيان والبغي والظلم أصدق

تصويـر، وتدعـو الخلـق إلى مكافحتهـا أشـد مكافحـة. مـا مـن مخلـوقٍ في هـذا الوجـود يسـتطيع أن يعيـش في أمـنٍ وسـلام إن كان الحكـم للقـوة. ومـا مـن مخلـوقٍ يتأخـر عـن بـذل كل مسـتطاع في سـبيل إزالـة حكـم القـوة. إن اللـه بـرأ الخلـق للتعـاون، وحُكـم القـوة لا يحقـق تعاونًـا مـا في العـالم. أيهـا الأعـزاء، إن الفاجعـة التـي حلـت بكـم، حلـت بي، بـل كان نصيبـي منهـا أضعـاف نصيبكـم، ولـو كنـت أعلـم أن الانتقـام يشـفي مـا بنفـسي شـفاءً تامًّـا، بـأن يهـدّ أركان الظلـم مـن أسـاها، لمـا تأخـرت عنـه. إن الانتقـام مـن الخصـم القـوي المسـتبد يـورث هلاكنـا، ويعـزز فيـه البغـي والعـدوان وهـذه نتيجـة يجـب أن نتجنبهـا. ونظـرت إلى وجوههـم، وإذا الجمـرات التـي كانـت تتقـد في عيونهـم قـد همـدت فقلـت: تعالـوا نبحـث السـبل التـي يجـب أن نسـلكها، فقـال أحدهـم: وهـل هـذه الحادثـة التـي وقعـت لنـا تكـررت؟ قلـت: كثيـرًا، ففـي كل بقعـة في هـذه الدنيـا قـوي وضعيـف، ظـالمٌ ومظلـوم، واتـرٌ وموتـور، معتـد وبـريء، ولـو قـدّر لكـم أن تسـيحوا في الأرض لاختبرتـم بأنفسـكم ضروب العـدوان، ولثـارت عاطفـة الانتقـام في نفوسـكم مـراتٍ كل يـوم، ولكنتـم بلوتـم مـن ضروب الظلـم أشـكالًا وألوانًـا، فهنـاك ظـالم بالقـوة دون تسـتر، وظـالم يطغـى ويتجـبّر منتحـلًا المعاذيـر، وظـالم يتـترس بالحـق. وهـو أبغـى البغـي، هـذه ضروب مـن الظلـم لـن تُعالـج بالانتقـام الـذي ائتمرتـم عليـه في أول الأمـر ولـو كان خصمكـم في قوتكـم أنتـم. أمـا تـرون في كلامـي هـذا نصحًـا لكـم وتأييـدًا لغرضكـم الأسـمى؟ قالـوا جميعًـا: نعـم، فالتفـت إلى زعيمهـم وقلـت: وأنـت أيهـا الحبيـب، ألم تعلـم مقـدار حبـي لكـم؟ لقـد نشـأتم في أحضـاني، وسـعدت بعشرتكـم مـدة طويلـة، وبنيـت عليكـم الآمـال، وأوقفـت عليكـم الرجـاء، وأردت لكـم أن تسـعدوا

وتُسعدوا. فكيت تريد أن تهدم ما بنيت؟ وتُخيب ما رجوت؟ أهذا جزائي؟ فنظر إلي بعينين مغرورقتين بالدموع وقال: يا أماه، ما أردنا بك شرًّا، وما كتمنا عنك عزمنا إلا لنجنبك التهلكة من دوننا، فقد كنا نعلم أنا واردون سبيل الهلاك، فأردنا أن نرده وحدنا. إنك تعلمين أنك أعز علينا من أرواحنا، وإن شئت فدونك التجربة فاصطنعيها. فما تمالكت أن هجمت عليه وقبلت عينيه وقلت له: إن حياتكم أعزّ عليّ من حياتي، بل هي أعز ما أحرص عليه في هذا الوجود. وإن كنت أفرط بأرواحكم فسأفرط بروحي قبلكم. إني أرى أرواحكم مشاعل نور ستضيء العالم أجمع. ولن يخبو نوركم قبل أن أرى ضياءه قد شعّ في جميع أطراف العالم. إن الحياة هبةٌ غاليةٌ من الله، ولكنها تنقلب إلى أرخص قنية حينما تبذل في سبيل مرضاة الله، ومرضاة الله لن تكون إلا بنشر العدل والحق والسلام بين جميع المخلوقات.

٢٧

لقد توطّدت بيني وبين الزعيم محبة لا أدري كيف أصفها. إذا رأيته لمع في قلبي بريقٌ يُضيء بين جوانحي. ويملأني بهجةً وطربًا. وإذا غاب عني شعرت بظلمة في قرارة نفسي. فلا يستقر لي مقام، ولا أرضى عن شيء مما أراه حولي. فكأني أفقد نفسي وبصري وسمعي وإحساسي، ولا يردها أحدٌ سواه. ومع أني أشعر بحبٍ عميقٍ لجميع الأولاد، وأرى فيهم أمانيّ التي كرست حياتي من أجلها، فإن حبي للزعيم من نوعٍ آخر. إني أنشرح برؤية الأولاد، وأطمئن إلى وجودهم لجانبي، وأطرب لمداعبتهم. ولكن ليس من بينهم أحدٌ يستولي على قلبي، وينتزعه

مـن أضلاعـي إذا شـاء، ويـرده إلي إذا شـاء ، سـواه. فـما هـذا الـذي أشـعر بـه نحـوه؟ ومـا حقيقتـه؟ أهـو إعجـابٌ بعقلـه الراجـح وشـجاعته النـادرة؟ أو هـو تقديـرٌ لمـا يتحـلى بـه مـن جـمال الصـورة، وبهـاء الطلعـة، ورشـاقة الحركـة؟ أهـو تأثـرٌ بفعـل مـافي عينيـه مـن بريـقٍ نافـذٍ ونظـراتٍ سـاحرات؟ الحـق أني لا أدري. فأنـا التـي أستشـعر بمواهبـي وأعتـز بمبـادئي، وأثـق بخالقـي، أنـا التـي فاديـت براحتـي وحيـاتي في سـبيل المُثـل العليـا، أقـف الآن حائـرة مستسـلمة أمـام ظاهـرة طـرأت عـليّ منـذ أيـامٍ قليلـة! أنـا التـي كنـت أعتقـد أني أسـتطيع أن أحـل المشـاكل، وأفـك ألغـاز، وأجلـو الغوامـض، أقـف الآن عاجـزة عـن حـلّ أمـرٍ يتعلّـق بنفـسي وحدهـا!

كان أول عهـدي بهـذا الشـعور الغريـب، ذاك اليـوم الـذي ائتمـر بـه الأولاد عـلى الانتقـام. فمنـذ تلـك الحادثـة التـي اضطـررت فيهـا إلى توجيـه حديثـي إلى الزعيـم، وأنـا أشـعر بنمـو عاطفـة في سـويداء قلبـي. كانـت النظـرة الأولى إعجابًـا محضًـا، وتقديـرًا محضًـا. ثـم انقلبـت إلى حـبٍّ فولـه ذي تباريـح. أمـا كيـف انقلـب الإعجـاب إلى حـب فـما أدري. وكل الـذي أذكـره بـشيء مـن اليقـين هـو أنـه اسـتولى عـلى قلبـي اسـتيلاءً تامًّـا.

لقـد عرفتـه في أول الأمـر جملـة، فرأيتـه واحـدًا مـن أولئـك الأعـزاء الذيـن احتضنتهـم وأوقفـت عليهـم جميـع أفـكاري وآمـالي. ثـم حينـما أحببتـه صرت أعرفـه جـزءًا جـزءًا. أنظـر إلى عينيـه فأراهـما كوكبـين سـاطعين ذوي إشـعاعٍ يمـلأ الدنيـا نـورًا وسـناء. وأنظـر إلى فمـه فـأرى خلاصـة العـاج قـد اسـتدق ومُلـس وسُـوّي في أجمـل صـورة. وأنظـر إلى عنقـه فـأرى غصنًـا رطيبًـا كسـاه ورق المنثـور، وعطّـره أريـج الياسـمين، وأنظـر إلى قدميـه فـأرى

حبك الجواشن ركبتْ غضني وردٍ أرجواني اللون. وأستمع إلى صوته فأسمع أعذب الألحان تنبعث من قيثارة داود، كل شيء فيه وكل شيء منه يوحي إليّ أجمل ما وقعت عليه عيني وسمعت به أذني.

وما أشك في أنه يحترمني ويُجلّني من أعماق قلبه. أما أنه يشعر نحوي بما أشعر به نحوه فأمرٌ ما أستطيع أن أقطع فيه. لعلَّه يضعني موضع الأم من نفسه، ولعله أيضًا يحبّني حب الابن لأمه. ولكني أحبه حبًّا يختلف عن حب الأم لابنها. أحبه حبي لزوجي، أحبه بعواطفي ودمي وأعصابي. وهو من جهةٍ ثانية يرى ما بيني وبينه من خلافٍ في السن فيراني أكبره بشهور عديدة. نعم إني لست من سن أمه. وحرارة قلبي تُنبّئني أن الاختلاف بيننا ليس بالحد الذي يحول دون تمازج الروحين. ولكن أهذا يا ترى من تصوّر الخيال؟ وما يجدي قولي هذا إن كان هو لا يُبادلني حبي؟ فأنا لو كنت أصغر منه سنًّا فلست بكاسبةً قلبه، إن كان هو لا يعطيني إياه طوعًا. فالعمر ليس عاملاً من عوامل التفرقة بين قلوب العاشقين. فقد يُحبّ كبيرٌ صغيرة، وتُحبّ كبيرةٌ صغيرا. والعاشق لا يجعل العمر شرطًا لعشقه.

فاض حُبّي في يومٍ من الأيام. وقسا عليّ فسلبني الصبر والقصد. فما تمالكت أن خلوت به في جانبٍ من جوانب الساحة. ولم أجد عناءً في هذه الخلوة، فكأنه كان ينتظر إشارتي ليخلو بي. فجلسنا متجاورين، وعُنق كلٍّ منا ينحرف في اتجاه صاحبه. وبادأته الحديث فقلت له: يا حبيبي، أتدري لِمَ استدعيتك إلى هنا. فابتسم وقال: لا. فنظرت إلى عينيه نظرةً طويلةً أستلهم منهم القدرة على الكلام. وقلت له: تفكّر

لعلك تعرف. فرمى ببصره إلى الأرض وقال بعد تأمّل: لعلك تريدين أن تكلّفيني عملًا دون سائر إخواني. فاضطرب قلبي اضطرابًا شديدًا. وشعرت بأن عقلي قد خلا من كل شيء، وأن عقيدتي التي وقفت عليها حياتي قد ملأت ذلك الفراغ جميعًا. وما عدت أرى أمامي شيئًا سوى تلك العقيدة. فإن حبي قد غاض وخرج من قلبي، وعُدت إلى حالتي القديمة قبل أن أشعر بالحب. فأشحت بوجهي عنه، وجمعت شعوري وتفكيري في لحظةٍ رهيبة. وقلت في نفسي: إنه ينظر إليَّ كأمه وأبيه ومرشده، ويتوقّع أن أكل إليه عملًا في سبيل تلك العقيدة السامية. إذن لأكتم حبي، بل لأنتزعه انتزاعًا من قلبي، ولأروض نفسي على التبتّل، ولأحدثنه في الموضوع الذي يتوقَّعه. فوقفت ثم ابتعدت عنه قليلًا، ثم جلست ونظرت إلى وجهه لأجاريه في الحديث عن الموضوع الذي فكّر فيه. ما كادت عيناي تقع على عينيه حتى غاضت العقيدة، وغاضت المبادئ، وعادت إلى قلبي نيران متأججة. وطغت سورة الحب على نفسي، فقمت مضطربة أشد الاضطراب وجلست مجلسي الأول، ومددت يدي وأمررتها على وجهه الجميل وقلت: يا حبيبي، أنت.. أنت... وأمسكت. قفل فمي وعدمت النطق. فقبض على يدي، والبشر يتلألأ في وجهه وقال: أيتها الحبيبة... وظلت يدانا متماسكتين لحظاتٍ شعرت أننا اتصلنا فيهما اتصالًا روحيًّا، وتفاهمنا جملةً وتفصيلًا. وأطرقت، وأطرق. وأظن أنه همّ أن يتكلم، ولكن قدوم الأعزاء علينا في تلك اللحظة حال دون الكلام. ليتهم تأخروا قليلًا حتى أسمع صوت حبيبي مرةً أخرى. ولكن ليت لم تُجدِ مرةً واحدة في جميع الحالات. أفتُجدي الآن؟

فقمت وتبعني واختلطنا بالأعزاء، وسرنا جميعًا نبحث عن الحَب السمين في الساحة.

ومرّت أيامٌ وفي نفسي صراعٌ عنيفٌ سلب السهاد من عينيّ في الليل، والراحة والطمأنينة من قلبي في النهار. كان الصراع بين عقلي وقلبي. ويعلم الله ما بلوت من جهاد واضطراب في أثناء الصراع. كنت أود أن يصرع أحدهما الآخر بلا رحمة، وأن يخلص لي واحدٌ منهما. ولكن القوّتين كانتا متكافئتين، فتارةً أشعر أن عقلي تغلّب وانتهى الأمر، وتارةً أخرى أشعر أن الغلبة لقلبي، وأن عقلي مصروعٌ لا محالة. ما شعرت باليقين في غلبة أحدهما على الآخر في حالةٍ من الحالات. كان عقلي يقول أنا الغالب. لقد قمت على أساسٍ مكينٍ من المبادئ السامية. ولست وليد اللحظات، وإنما أنا وليد أيامٍ وشهور وقد عانيت المصائب والأهوال فنشأت كأقوى ما يكون مخلوق من الصلابة والإيمان. ولن أتراجع، ولن أستسلم. ويقول قلبي: أنا الغالب، لأني ابن الفطرة والغريزة، وهما خالدتان. نعم إني ابن الساعة، ولكن أصولي راسخةٌ في أعماق النفس منذ نشأة الحياة. فأنا لست وليد الساعة، ولكني وليد الحياة نفسها، أُخلق معها، وأموت معها. ليس الصراع جديدًا فقد ورثته عن آبائي وأجدادي منذ ظهرت الخليقة، وسيكون لي الظفر كما كان لأسلافي من قبلي.

بمثل هاتين اللغتين وبمثل هذه الحجج المبينة كان ينطق كل من عقلي وقلبي في أثناء صراعهما العنيف. وأنا بينهما كالريشة في مهب الريح، يقذف بي هنا وهناك بقوة. اللهم كن في عوني وأرحني من هذا البلاء الذي تملّكني واستذلّني.

٢٨

ولما لم يتّسع صدري للصراع العنيف الذي شبّ فيه، رأيت أن أخرج إلى الطبيعة، أستعين بفضائها الرحب على تخفيف الضيق الذي ألمّ بي. فكنت أخرج مع الأعزّاء كل صباح نتريّض ونلهو مستعرضين كل ما تُنبته الطبيعة من مختلف النباتات والأزهار.

لقد عجب الصغار لهذه المخلوقات النباتية التي لا يحصيها عد، فمن أقحوانةٍ ناصعة البياض، متناسقة الأجزاء، ملتفّةٍ حول زرٍّ أصفرٍ فاقعٍ لونه. إلى شقيقة من شقائق النعمان عريضة الأوراق أرجوانية اللون معقودةٍ حول زرٍّ أسودٍ منمنم. إلى زنبقةٍ ناصعة البياض محلّاةٍ من أسفلها بلونٍ أصفر، ذات أريجٍ فيّاح. إلى قرن غزالٍ زهرية اللون طويلة العنق مركبة على ساق رقيق ذي لونٍ أحمر. إلى ما لا يُحصى من الأزاهير العجيبة الشكل واللون والرائحة.

وقد فطن أحد الصغار إلى اتساع الأرض لهذا الكثير من الأزاهير فقال: أمّاه، أيقع خصامٌ بين هذه الأزهار؟ قلت: ولِم يقع؟ قال: ألا تستأثر زهرةٌ بمكانٍ خُصّص لغيرها؟ فضحكت وقلت: إن هذه الأزهار تنبت وتحيا بوحي الفطرة، والفطرة عاقلة، فإذا وجدت زهرةٌ أن المكان ضيّق

انحنت قليلًا ونبتت في مكانٍ آخر. قال: وكيف ترضى الزهرة الأخرى عن مجاورتها؟ قلت: إن الفطرة هي التي تُوزّع التربة على الأزاهير، وهي التي تكفل لها الحياة، وهي أعقل من أن تُحدث ازدحامًا يُسبّب نزاعًا بين مختلف الأزاهير.

واسترعى لون شقائق النعمان الأحمر والأسود نظر آخر من الأعزاء، فأطال النظر فيها وقال لي: أمّاه، كيف اجتمع الأحمر والأسود في زهرةٍ واحدة، ألا يُفاخر أحدهما الآخر؟ قلت: إني لأعجب لكم أيها الأعزاء كيف ترفضون الاختلاف والخصام في كل شيء تقع عليه عيونكم، كأنكم تفترضونهما أمرًا طبيعيًّا لا مفر منه. إن الطبيعة أيها الأعزاء أعلى وأسمى من أن تخضع جميع مخلوقاتها لهذا النظر الضيق. إنها لا تميز ما تُبنت، فجميع الأحياء على وجهها متساوون. فليس الأسود بأعز من الأحمر، والأبيض بأحب إليها من الأصفر. وهي قد نُوّعت عن قصد، فلمَ نحاول إساءة فهمها وتأويله شر تأويل؟ قال: وما القصد؟ قلت: القصد إرضاء المشيئة الإلهية في رؤية الخلق على أجمل وأبدع نظام. فلو جاء لون جميع الأزاهير واحدًا وشكلها واحدًا لانعدم الجمال فيها، ولكانت الحياة مملةً منفّرة.

عدنا إلى مأوانا عشية يوم بعد نزهةٍ جميلة، وما كدنا نبلغ الثغرة حتى أحسسنا حركة غير مألوفة في داخل المأوى، فوقفنا وهممنا أن نعود خشية أن نكون قد ضللنا الطريق. ولكنا تفحّصنا الساحة بقعةً بقعة، فإذا هي ساحتنا. فدخلنا الواحد تلو الآخر، وإذا الساحة كما هي لم يُصبها تغيرٌ أو تبديل. ثم اتجهنا إلى المأوى ونظرنا إلى داخله،

فإذا هناك مخلوقاتٌ غريبةٌ عنا، فولجت الباب وإذا مجالسنا مشغولة، ففزعت وصحت: من هنا؟ فردّت عليّ أنثى قائلة: لا تجزعي أيتها الأخت. نحن مخلوقاتٌ مثلكم حُملنا إلى هذا المأوى، ولم نعرف أين نُحمل. قلت: أهاربـاتٌ من ضيمٍ وعذابٍ أنتن؟ قالت: لا. إنما حُملنا إليكم من بيوتنا. قلت: أتمكثن طويلاً هنا؟ قالت: لا علم لنا بذلك. ودخل الأعزاء، وتقاسمنا المأوى وبتنا ليلتنا في ضيق. وفي الصباح خرجنا إلى الساحة جميعًا، ورأيت في وجوه الأعزاء تبرّمًا واضطرابًا. وجاؤوا إلي يشكون: المأوى لا يتسع لنا جميعًا. قلت: تريّثوا أيها الأعزاء، فليس من الخُلق أن نطرد من نزل علينا ضيفًا. فقالوا: ولكن المأوى أضيق من أن يتّسع لنا ولهم.

وجاء وقت الطعام، وانتشر الأعزاء في الساحة دأبهم كل يوم. وتنحّيت جانبًا أرقب القادمات. فإذا خلافٌ يدبّ بينهن، فهذه تستسمن حبة فما تكاد تصل إليها حتى تقفز إليها أخرى محاولة أن تنتزعها من فمها. وإذا الكبيرات منهن يضربن الصغيرات، ويمنعهن من التماس غذائهن. أشفقت عليهن، وودت لو تركن الخصام. فالحَبّ كثير، والطعام وفير. فذهبت إلى إحداهن وقلت لها: أيتها العزيزة، لم تضربين هذه الصغيرة؟ فقالت: يا أختي، إن في هذه الصغيرة سوء أدب لو بلوته ما أشفقتِ عليها. فقلت لها: ما رأيت فيها سوء أدب. فهي تأكل كما يأكل سائر أخواتها. وليس عقاب سوء الأدب -إن وُجد- الحرمان من الطعام. وفيما أنا أحدّثها، إذا صراخٌ يعلو في جانبٍ آخر من الساحة، وإذا إحدى الصغيرات تستجير من أخرى كبيرة ضربتها في رأسها ضربةً

موجعـة. فأسرعـت نحوهـما وحُلـت بينهـما. وقلـت للصغـيرة: لم تعتديـن عـلى مقـام أختـك الكبـيرة؟ فقالـت: أيتهـا العزيـزة، مـا اعتديـت، وإنمـا هـي تريـدني عـلى أن أكـون خادمـةً لهـا، أجمـع لهـا الحـب بنفـسي، وأقدّمـه لهـا غنيمـةً بـاردة، وهـي لا تريـد أن تسـعى بنفسـها وتتنـاول طعامهـا بجدّهـا. فقلـت: يـا للعجـب! أبلغـت الأنانيـة إلى هـذا الحـد؟ وأمسـكت بالكبـيرة وقلـت لهـا: أيتهـا الأخـت، الأرض فسـيحة والحـب كثـير، فلـم لا تتناولـين بُغيتـك بنفسـك؟ فضحكـت وقالـت: ولم خُلـق الصغـار؟ قلـت: خُلقـن للسـبب الـذي خُلـق مـن أجلـه الكبـار. قالـت وقـد رفعـت رأسـها متعاليـة: ومـا هـو؟ قلـت: السـعي. قالـت: هـذه فلسـفة جديـدة مـا عرفتهـا مـن قبـل. قلـت: ولم خلقـن إذن أيتهـا العزيـزة؟ قالـت: خُلـق الصغـيرات لخدمـة الكبـيرات. قلـت: في كل الحـالات؟ قالـت: أجـل. قلـت: ولم؟ قالـت: لأننـا نشـأنا عـلى هـذا. فهـل يصـح أن أشـقى في صغـري وأبلـو قسـوة الكبـيرات عـليّ، ثـم أشـقى في كـبري أيضًـا بـأن أسـعى في طلـب الـرزق وحـدي؟ أليـس مـن المعقـول أن أعامـل الصغـيرات كـما عاملتنـي الكبـيرات حـين كنـت صغـيرة؟ أو ليـس الحكـم للعـرف والعـادة؟ قلـت: رويـدك أيتهـا الأخـت، ليـس الحكـم للعـرف والعـادة، الحكـم للحـق وحـده. فضحكـت ضحكـةً طويلـة، رنّ صداهـا في أعـماق نفـسي وقالـت: عِـش رجبًـا تشـهد عجبًـا! وغادرتنـي وهـي تخطـر بكبريـاءٍ وصلـف. كان وقـعُ كبريائهـا عـلى نفـسي أبلـغ وأشـد مـن ظلمهـا الصغـيرة. يـا للـه مـا أقبـح الكبريـاء حـين يُركّـب عـلى الظلـم! إن الكبريـاء في نفسـه بـلاء، فكيـف إن قُـرن بالظلـم؟

دخلنـا المـأوى في ذلـك اليـوم مبكّريـن. وأخـذ كل واحـد منـا مكانـه المعتـاد.

وبعد قليلٍ دخلت الأسرة الجديدة. ففسحنا لها في المكان. ولكن واحدة منهن أبت إلا أن تحتل مكان الزعيم. ولما وجدته قد سبقها إليه أرعدت وأزبدت، وأمرته أن يُخلي المكان. فتأثر الزعيم من غلظتها، ولكنه تأدّب وقال: لست أبخل عليك بمكاني، ولكني كنت أحب أن تتلطّفي معي بالكلام. فصاحت قائلة: ولم أتلطف بالكلام؟ أيجرؤ الصغير مثلك أن يمتنع عن تلبية طلبي؟ فما سمع الزعيم كلامها حتى ثار الدم في وجهه. ولفت الحديث انتباهي فذهبت إليهما وقلت: ما الخطب؟ فأطرق الزعيم ولم يتكلم. فقالت هي: أخجله المنكر الذي ارتكبه. فاستفزه الشمم، ولكن الحياء تغلّب عليه، فقال بصوتٍ منخفض: يا أماه، أمرتني هذه الفاضلة أن أتخلى عن مكاني بألفاظ رأيتها قاسية فرجوتها أن تصلح لهجتها، فتكدّرت وأنّبتني بألفاظ جارحة. فقالت: أعصيانٌ ووقاحة! عندئذٍ لم أتمالك نفسي فقلت لها: أيتها العزيزة، رويدك. فليس ما يوجب التعنيف. قالت: لقد خالف أمري، وتواقح عليّ. فلت: وبم أمرته؟ قالت: أمرته أن يُخلي المكان. قلت: ولم؟ قالت: إنه مكاني. نمت فيه بالأمس، وهو يلائم صحتي ومزاجي. فهو مرتفعٌ عن الأرض، وأنا تؤذيني الرطوبة. قلت: أما السبب الأول فلا أقرك عليه. وأما السبب الثاني فمعقول. وواجب على كل من في المأوى أن يقدمك على نفسه حتى تعتدل صحتك، فتساوينا. فقالت: هذا حكمٌ ما سمعناه في حياتنا قط، وأنا كان يجب أن أقول لك إني أطلب هذا المكان لأني أكبر من هذا الفتى سنًّا، وأسمى منه مقامًا، وأشد منه قوةً وبطشًا. قلت: أيتها العزيزة، أنت تصدرين عن مبادئ برئنا منها في مأوانا هذا. فقالت متهكمة: مبادئكم! وهل لمثلكم مبادئ يصدر

عنهـا؟ فغضـب الزعيـم وتقـدم إليهـا يريـد شرًّا فأمسـكت بـه وقلـت لـه: أيهـا الحبيـب الـزم نفسـك، ولا يُخرجنـك كلامهـا عـما ينبغـي أن تتحـلى بـه. فقـال: طفـح الكيـل. فقلـت: كيلـك صغـيرٌ أيهـا الحبيـب. فعليـك أن تسـتبدل بـه كيـلًا آخـر. فابتسـم ابتسـامة الرضـا -ويـا لهـا مـن ابتسـامةٍ سـاحرةٍ مـن ذلـك الفـم العاجـي!- وقـال: سـامحيني. فالـرأي لـك. فقلـت: أيهـا الحبيـب، أوسـع لهـا مكانًـا بجانبـك وغـدًا نُسـوّي المسـألة بينكـما. فانكمـش في مكانـه. فقلـت لهـا: تفضـلي أيتهـا العزيـزة. فنظـرت إلى المـكان بـازدراء وقالـت: أتريديننـي أن أرضى بالتنـازل عـن إرادتي، ومعانـاة الضيـق في هـذا المجلـس؟ قلـت: إلى غـد. قالـت: وليـس إلى دقيقـة. ودفعـت الزعيـم بمنكبهـا بعنـف، واسـتقرت حيـث تريـد هـي، وهـي ترغـي وتزبـد، فـكاد الزعيـم أن يقابـل القـوة بالقـوة، ولكنـي أمسـكت بـه وقُدتـه إلى مجلـسي، وأحطـت عنقـه بذراعـي فاستسـلم.

وأسـدل الليـل علينـا ثوبًـا كثيفًـا، ولكنـي لم أغمـض طرفًـا. فقـد أنفقـت الليـل كلـه أفكـر فيـما رأيـت وسـمعت.

٢٩

عـلى كـثرة مـا فكـرت طـوال الليـل، لم أصـل إلى نتيجـة حاسـمة. فقـد كانـت أفـكاري مشوشـة، متقطعـة متنقلـة، فـما أبـدأ فكـرة حتـى تقفـز إلى رأسي فكـرةٌ أخـرى. ومـا أمسـك طرفهـا حتـى تنتهـي إليَّ فكـرةٌ ثالثـة. وهكـذا إلى مـا لا نهايـة لـه. وكيـف يصـح أن يسـتقيم الفكـر والنفـس قلقـة تُحـاول أن تـبرم أمـرًا خطـيرًا في وقـتٍ لم يُخلـق إلا للراحـة والسـكون؟

ولما نبا بي المقام، وأضجرني سقم الأفكار، رأيت أن أترك مضجعي في الهزيع الأخير من الليل، وأخرج إلى الساحة. وجلست تحت تلك الشجرة التي طالما كنت أجلس تحتها في الأيام الخوالي. رفعت رأسي إلى السماء، وإذا النجوم تتلألأ في القبة الزرقاء، ما بين كبيرٍ وصغير، قريبٍ وبعيد، ساكنٍ ومتحرك. لم أستطع أن أحصر تفكيري في الموضوع الذي أرقني، لأنَّ نجوم السماء كانت تجذب جميع تفكيري إليها. ما هذه العوالم المنتشرة في السماء؟ وكيف توزّعت في أبراجها على هذه الأشكال العجيبة دون أن يُزاحم بعضها بعضًا، أو أن يصدم بعضها بعضًا؟ يجب أن تكون هذه الملايين من النجوم قد تقاسمت الفضاء تقاسمًا قائمًا على الحكمة والعدل حتى تجنّبت الصدام والزحام. إنَّ هذه السماء بريئةٌ من كل جور وبغي وخصام، وليس فيها نجمٌ كبيرٌ يطغى على نجمٍ صغير، وليس فيها نجمٌ قويٌّ يستطيع أن يستبد بنجمٍ ضعيف.

وهذا التوزّع العادل في السماء له نظيره على الأرض. فعالم الأزهار الذي شاهدت بعضه في أثناء خروجي مع الصغار في الأيام السابقة يقوم على نفس النظام العادل الذي تقوم عليه النجوم في السماء. فما رأيت بينها زهرة قوية تبطش بزهرةٍ ضعيفة، ولا زهرة كبيرة تطغى على أخرى صغيرة. وعلى ذلك يحق لي أن أسمّي أزاهير الأرض نجوم السماء. فهي نجومٌ بريئةٌ مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والروائح. وهي متعة المخلوق في نهاره، وموضع نظره واعتباره، ومحل إعجابه وسروره، ومنبع وحيه وإلهامه، ومثار إيمانه واستسلامه بقدر ما هي نجوم السماء في الليل. ولو رُزقت الأزهار نورًا لأضحت نجومًا متلألئة

في الأرض، ولكنها حُرمت النوم، وعوض لها بالألوان والعطور، والنور واللون والعطر أرواحٌ ثلاثة سرّها في علم خالقها.

كان ينبغي للمخلوق أن يستلهم من السماء والأرض نظام عيشه، فيستقر كل مخلوق في المكان الذي كُتب له، ويجري كل مخلوق على السنن التي قُدّرت له، ويعرف كل مخلوق حدوده دون أن يلتجئ إلى بغي أو عدوان. ولكن ما أعجب المخلوقات! فإنها تستكبر على سائر ما خلق الله في كونه الواسع الذي لا حد له، فتضع العمالقة الجبابرة نفسها في المرتبة الأولى لما أُنعم عليها من بسطةٍ في العقل، ثم تضع الحيوانات العجمارات في المرتبة الثانية تزعمهم أنها حرمت نعمة العقل والنطق. وتضع النباتات في المرتبة الثالثة، والجمادات في المرتبة الرابعة. ترى أكانوا عادلين منصفين في تقسيمهم؟ أما طغوا وجاروا؟ إنا إذا اعتبرنا هذه المخلوقات من حيث تنفيذ المشيئة الإلهية في تحقيق العدل والسلام والتعاون، لاقتضى أن يُعكس هذا الترتيب، فنبدأ بالجماد فالنبات فالحيوان فالعمالقة. لأن العمالقة الذين تميّزوا بزعمهم العقل انحطوا عن عالمي النجوم والنبات بما أفسدوا في الأرض، وبما اخترعوا من أضاليل وأوهام، وبما سلكوا من معوج السبل، وبما ارتكبوا من آثام وأخطاء. لقد ثبت أن عقل العمالقة المأفون أضعف من قوة الفطرة. وما عليهم إن أرادوا صلاح أنفسهم حقًّا إلَّا أن يتركوا عقولهم المأفونة جانبًا، وأن يستسلموا للفطرة، فهي أرشد إلى الصواب والحق.

وجهت بصري إلى السماء أستلهم سداد الرأي في المشكلة التي كوت

جفوني بالأرق، فإذا النجوم قد غارت وإذا نجمٌ واحدٌ قد ثبت في مكانه في المشرق، هذا نجم الصباح ثبت في مستقره يُشيّع إخوانه جميعًا بابتسامة الإيناس إلى حين يلقاهم في المساء.

أكسبني طول النظر في النجم الفريد تجمّع شتات أفكاري، فقد كانت متشعّبة مع النجوم، فارتدت الآن موحدة إلى مكانها من عقلي، فأخذت أستعرض ماضيَّ القديم حلقةً حلقة، وطورًا طورا.

لقد نشأت في بيئة ريفية أستمتع بالهواء الطلق، والأرض الفسيحة، ألتمس غذائي بنفسي، وأجمع الحب بعرق جبيني، فاكتسبت حرية الحركة، وصفاء الذهن وسذاجة القلب، ونقاء الضمير، كانت حياتي في تلك البيئة متمشية مع الفطرة الأولى، ولم يقع لي ما يخدشها أو يُفسدها، وكانت الطبيعة التي عشت فيها مؤيدة لنوازع الفطرة، فشببت على الصراحة والصدق والثقة بالنفس والحب والإخلاص، ثم انتقلت إلى هذا المأوى فتمتّعت مدةً من الزمن بحب زوجي وعطفه، واستمتعت بحياة مترفة طعامها كثير، وماؤها غزير، ولكني حُرمت حياة الطبيعة الحرة، واصطدمت مبادئي التي نشأت عليها بمبادئ أترابي، فخاصمنني وائتمرن بي وتحالفن ضدي، وخرجت مبادئي سالمة، ولكن نعمة صداقتهن لم تدم إلا بعد أن فُجعت بزوجي الصالح، فاجتمع عليّ السرور والحزن في آنٍ واحد. ثم جاءت تربي ذات الوجه الغريب، واتصلت بعشيرتها عن طريق الإحسان، ثم عادت إلى عشيرتها، فكانت عودتها أقوى شاهد على أن الظفر فضيلة. ثم رُزقت تُربي العاقلة أولادًا فتحوا لي بابًا جديدًا إلى عالم الكفاح في سبيل المُثل العليا، فبنيت آمالًا

وأحلامًا، وحسبت الدهر قد أقبل معوّضًا أحسن العوض، وما كدت أجني ثمار الحياة الجديدة حتى فُجعت بأترابي العزيزات، فتذرّعت بالصبر والإيمان. ثم تعلّق قلبي بحب الزعيم، وتعرّضت لصراعٍ عنيفٍ بين عقلي وقلبي. وفيما أعاني أهوال الصراع، وألتمس الفرج من أشد فتنة بلوتها في حياتي، فوجئت بقدوم أسرةٍ غريبةٍ تجمّعت فيها مساوئ المجتمع ورذائل البيئة الفاسدة. وأنا الآن أبلو محنة لا تقل هولًا عن تلك الفتنة، ولكني منفردةٌ في فتنتي، ونتائجها تتعلّق بنفسي، أما المحنة فعامة البلوى ومصائرها تتناول الأعزاء جميعًا.

إن حياتي قد ساقها القدر في طريقٍ تستقيم تارة وتعوجّ تارة أخرى، ولم يكن لي خيرة في السير، وهكذا حياة المخلوقات جميعًا تعلو حينًا وتنخفض حينًا آخر. وهم أضعف من أن يتملّكوا زمام أنفسهم. ولكن هناك شيئًا واحدًا استطعت أن أتمكّن منه ولن أُخضعه لمشيئتي التامة، وهو: مبادئي السامية التي استلهمتها من فطرتي الأولى. وسألتزم مبادئي ما حييت؛ لأني غير مسؤولة عن حوادث الدهر، ولكني مسؤولة عن مبادئي. وستذهب حياتي مع الذاهبين، وسينقضي العمر مع الأعمار، وسأصبح يومًا من الأيام حفنةً من تراب، وسأصبح منسيةً مع الزمن، ولكن ما يجوز عليّ لا يجوز على مبادئي؛ لأنها ستكون ميراث الأجيال بعدي، وستخلد على الدهر، وسيذكرها الناس في كل عصر مع ما يذكرون من تراث القدامى، الذين وهبوا أنفسهم للمثل العليا والمبادئ الفاضلة. إن الجسم وما يتعبه من مطامع وشهوات وأهواء مصنوعٌ من مادة، والمادة إلى فناء، أما النفس الخيرة الفاضلة وما

يتبعها من مبادئ شريفة وأفكار سامية ومثل عليا، فليست مصنوعة من مادة، وإنما هي نفحاتٌ إلهية خالدة على الزمن.

وما شعرت وأنا سابحة في لجة الفكر إلا بيد رقيقة تربت على كتفي. فالتفتت مذعورة، وإذا بيد الزعيم، فاستبشرت بوجهه الصبوح خيرًا، وقمت معه وأنا مؤمنة بأن تاريخي الذي استعرضته لن يُشوّه، وأني لن أُخطئ التوفيق في هذه المرة أيضًا.

٣٠

سرت مع الزعيم وتبعنا الأولاد، متجهين نحو الريف. فسرنا مُجدّين إلى أن بلغنا مرتفعًا من الأرض فصعدنا فيه، وجلسنا في حلقةٍ كبيرة توسّطتها، وأجلست الزعيم إلى يميني. وبعد أن استرحنا قليلًا قلت للزعيم: إني آسفة لما وقع في الليلة الماضية. فقال: لقد وُضعت في مأزقٍ حرج اضطرني أن أخرج عن حدود الأدب. فقلت: وماذا عزمت أن تفعل؟ فقال: لا يمكن للمأوى أن يتّسع لنا جميعًا. ويعزّ عليّ أن أغادر المأوى الذي نشأت فيه لأخليه لهذه الأسرة الطارئة. ونحن بين أمرين: إما أن نتنازل عن مأوانا، أو أن نتمسّك به ونطرد الغريبات منه. فقال أحد الأولاد: لا يُعقل أن نتنازل عن مأوانا الذي نشأنا فيه. والواجب يقضي أن تعود الأسرة من حيث أتت. فصاح الأولاد: هذا حق. وليس فينا واحدٌ يهون عليه أن يفرّط في مسقط رأسه. فقال الزعيم: إذن نحن متّفقون. ويجب أن نعود حالًا وننفذ الخطة. وتحرّك الأولاد يهمّون بالعودة. فقلت: رويدكم أيها الأعزاء. أتظنون أن

الأسرة تخضع لرأيكم وتغادر المأوى؟ فقال الزعيم: إن لم تغادره طوعًا غادرته كرهًا. وقال أحد الأولاد: لقد امتنعنا عن الانتقام من العمالقة خشية أن يبطشوا بنا؛ لأنهم أشد قوة منا، وليس الحال كذلك الآن. فقلت: وإن نشب بينكم قتالٌ فماذا تفعلون؟ فقال الزعيم: إن حُملنا على الشر ركبناه. قلت: إذت تلتجئون إلى القوة. قال: نعم. قلت: إذن تؤيّدون سلطان القوة، وتحكمون فيما يشجر بين المخلوقات من خلاف؟ فقال الزعيم: لسنا مسؤولين عن الخلاف، فقد سببته الأسرة، والشر بالشر والبادي أظلم. قلت: وإن وقع خلافٌ آخر مع فريقٍ أشد منكم قوة، فماذا تفعلون؟ فنظر الأولاد بعضهم إلى بعض متسائلين، ثم قال الزعيم: ندافعه دفاع المستميت، فإن تغلّبنا ظفرنا، وإن غُلبنا متنا في سبيل الواجب. فقال آخر: لو وقع لغيرنا من المخلوقات ما وقع في مأوانا فماذا يجري؟ لنسترشد بتجارب غيرنا. فقال الزعيم: هذا حق، ثم التفت إليَّ قائلًا: أخبرينا أيتها العزيزة ماذا يجري؟ قلت: يلتجئون إلى القوة كما تريدون أن تفعلوا، فقالوا: إذن نفعل كما يفعل غيرنا. فقال الزعيم: إذن لا يصح أن نُلام. فنحن أولًا ندافع عن حقٍّ لا شبهة فيه، وثانيًا نرد ظلمًا حل بنا، وثالثًا نفعل ما يفعل غيرنا في مثل حالنا. ورأيت قوله مصيبًا. ولكنه لا يحل الخلاف، ولا يلتئم مع المُثل العليا التي تمسّكت بها طوال حياتي. فأنا التي قاومت البغى وحكم القوة، وكرهت الكبرياء كيف أسلم الآن حل هذه القضية للقوة؟ قلت لهم: ألا تريدون أن يحتكم الحق في قضيتكم دون القوة؟ قالوا: نعم. قلت: إذن لا ينبغي أن تلتجئوا إلى القوة. قال الزعيم: وإذن ماذا نفعل؟ قلت: إذن ليس لكم إلا أن تنتشروا في هذه الأرض، وتبشروا الخلق بالخضوع

للحـق وحـده، وتقنعـوا الباغـي بـأن بغيـه يرديـه. وعندئـذٍ تحلّـون قضيـةً عامـة إنمـا قضيتكـم جـزء منهـا. ليذهـب كل واحـدٍ منكـم إلى بقعـة مـن بقـاع الأرض وليوقـف نفسـه عـلى نـشر العـدل والمسـاواة والمحبـة بـين الخلـق جميعًـا، ولتكـن نفسـه أصلـب مـن الصخـر فـلا تلـين ولا تستسـلم، لتزذكـم المصاعـب قـوة، والمهالـك ثقـةً بمبادئكـم، والمقاومـة إيمانًـا بالظفـر، قـد يسـتهزئ بعـض الخلـق بكـم بمبادئكـم، وقـد تجـدون أنفسـكم منفرديـن في مسـعاكم، فـلا يردنكـم ذلـك عـن تحقيـق قصدكـم. إن العـالم يعيـش في لجـج مـن الضـلال، وإن قضايـا العـالم والبغـى والعـدوان تتكـرّر في كل يـوم، ولكـن الخلـق مهيّـؤون لتحكيـم مبـادئ الفطـرة القائمـة عـلى المحبـة والعـدل والمسـاواة. وإن لم تفلحـوا فسـتفلح مبادئكـم عـلى أيـدي أعقابكـم، أو أعقـاب أعقابكـم.

هنـاك ضـلالات يجـب أن تسـلّوها مـن صـدور الخلـق بالرفـق والحكمـة. وهـذه الضـلالات هـي منابـع مـا بلوتـم ويبلـو غيركـم مـن مظـالم لا عـدّ لهـا. ومـن هـذه الضـلالات التـي يـتردّى فيهـا الخلـق، أن المخلـوق معـرّضٌ للجـوع، ولذلـك يجـب عليـه أن يجمـع معاشـه عـن أي سـبيل مـن السـبل. والواقـع أن هـذه ضلالـةٌ كـبرى. فليـس في الكـون معـدة تعـاني الجـوع حقًّـا، إلا إن كانـت لمسـنّ أو مريـضٍ أو فقـيرٍ أو صغـير. وإنـه لعـارٌ عـلى الخلـق أن يعـاني هـؤلاء فـراغ المعـدة. ولكـن هـؤلاء قليلـون، بـل يـكادون يكونـون في حكـم النـادر، ومجمـوع الخلـق لا يعـدم وسـيلةً لمـلء معدتـه. ولكنهـم يتوهّمـون تعرّضهـم للجـوع فيشـتد جزعهـم، ويرتكبـون في سـبيل إبعـاد شـبح الجـوع الموهـوم آثامًـا ومنكـراتٍ هـي مصـدر شـقاء العـالم. فيسـلب

القـوي مـال الضعيـف، والكبـير مـال الصغـير. وحـين يتعـرّض الصغـير والضعيـف للظلـم تثـور في نفسـيهما أحقـادٌ تدفعهـما إلى ارتـكاب الظلـم، وبذلـك يـورث الظلـم ظلـمًا والـشر شرًّا.

ومـن ضلالاتهـم أن الفـرد يسـتطيع أن يسـتمتع بالسـعادة منفـردًا عمـن حولـه مـن المخلوقـات. وبتأثـير هـذا الوهـم يـسرق اللـص مـال غـيره، ويلتجـئ النـذل إلى الخيانـة، ويتوسّـل الـدنيء بالكـذب أو النفـاق أو الاحتيـال. وهكـذا... يسـتقلُّ كل فـردٍ باتبـاع السـبيل الـذي يجلـب لـه السـعادة الموهومـة، دون رعايـة لمـا تنتجـه آثامـه هـذه مـن شـقاءٍ عـام للمجمـوع. ولـو اعتمـد كل مخلـوقٍ عـلى عملـه، وكسـب رزقـه بعـرق جبينـه، وترفّـع عـن خـداع غـيره أو ظلمـه أو خيانتـه لاسـتمتع المجمـوع بالحُـب والتعـاون والإخـاء حقًّـا.

ومـن ضلالاتهـم أن المـادة هـي سـبيل السـعادة الوحيـد. فمـن كـثر مالـه كـثرت سـعادته. وهـذه ضلالـةٌ مـن أخطـر الضـلالات عـلى المخلوقـات. فالمـادة مـا كانـت ولـن تكـون مصـدر السـعادة. قـد تكـون مصـدر نعيـم جسـمي آني لبعـض المخلوقـات. ولكـن أكـثر الذيـن تتضخّـم أموالهـم إنمـا يجمعـون المـادة لمجـرد حبهـم إيَّاهـا، ومـن أحـب شـيئًا اسـتهان بجميـع الوسـائل الشريفـة في سـبيل إحـرازه، وبـذل كرامتـه ومروءتـه في سـبيل الاحتفـاظ بـه.

ومـن ضلالاتهـم أن النـصر حليـف القـوة، فيتخذونهـا وسـيلة لقضـاء حقوقهـم، وحـل قضاياهـم. والقـوة ضـد الحـق، لأنـه إن وُجـد الحـق أصبـح

لا حاجة للقوة. فأفهموا من يتظاهر بالقوة أن قوته لا تدوم، وأن الذي يدوم هو الحق وحده، وأن الاعتماد على القوة إعزازٌ لسلطانها، وأنه إن استعمل سلطانٌ القوةَ تردّى الخلق في أكبر ضلالةٍ في الوجود. فكل قوي فوقه أقوى منه، ومن التجأ إلى القوة حينًا أُلجئ إليها حينًا آخر، ومن صرع بقوته يومًا صرعته قوة غيره يومًا آخر.

هذه هي أيها الأعزاء وأمثالها ضلالات تتحكّم في الخلق. فإن استطعتم أن تنتزعوها من صدورهم انقطعت أسباب البغي والخصام وجميع المساوئ التي بلوتم بأنفسكم بعضها. هذا هو السبيل الوحيد للانتقام ممن وتركم في أمكم وصديقاتكم، وممّن نغّص حياتكم في مأواكم.

ولكن لا يُقدم على مقاومة هذه الضلالات إلا من وهبه الله عزمًا وحزمًا وإيمانًا وثقة. لأنه سيبلو في أثناء مقاومته صراعًا عنيفًا، وكيدًا شديدًا، فإذا تعرّض أحدكم لذلك – وهو لابد متعرّض- فليذكر أن هذا الذي يتعرّض له إنما هو نتيجة للضلالات التي يُحاربها. ولتزدد مقاومته بازدياد قوة خصمه. وليجاهد بلسانه وماله ونفسه إلى أن يظفر بنشر مبادئه.

أيها الأعزاء، إن حياة الفرد جزءٌ من حياة المجموع. فإذا سعِد المجموع سعد الفرد بسعادته، وإذا شقى المجموع شقى الفرد بشقائه. وحياة المخلوق في نفسها أشبه بثانية في حياة الخليقة أو أقل. فانظروا إلى هذا الزمن ما أقلّه وأحقره. ولكن هذه اللحظة أو ما هو أقل من لحظة، قد تقدّر في حياة المخلوقات بسنواتٍ أو قرون، إن وُهبت لخير

العالم وصلاحه. إن العالم الذي يتردّى في الشقاء كالليلة الحالكة الظلام، فالشرارة الصغيرة تُحدث فيها نورًا عظيمًا وكذلك النفس المُصلحة التي تُبعث في وسط الشقاء العالمي، تُحدث فيه نورًا عظيمًا. فكونوا أنتم تلك النفوس. سيحوا في الأرض، وتوّزعوا بين الخلق، وانشروا بينهم المُثل العليا، والمبادئ السامية. وإني لواثقةٌ بأنا سنلتقي في مأوانا هذا بعد أن نُطهّر العالم أجمع - لا وطننا الصغير فحسب - من هذه الضلالات.

وإني لن أتخلّف عنكم فسأعمل كما تعملون. ولكني عاهدت نفسي على أن أحفظ حُرمة ذلك المأوى الذي أودعت فيه جثمان زوجي، وشاهدت فيه نموّ مبادئي. فسأعود إليه وأصلح حال الأسرة التي هبطت عليه، وسأذكركم ما حييت، فاذكروني أنتم ما حييتم؛ وليجمعنا الصراع في سبيل المُثل العليا في كل لحظة من لحظات حياتنا. وليكن ذكرنا اشتراكنا في الجهاد مبعث قوةٍ ونشاطٍ لنا. أمهيّئون أنتم للعمل؟ فصاحوا جميعًا بصوتٍ واحد: نعم. فقلت: إذن هيا وانبعثوا في الأرض.

ويا لها من لحظةٍ رهيبة أخذت فيها أقبل الأعزاء واحدًا واحدًا قبل أن يسلك كلٌّ سبيله في الأرض. ولما جاء دور الزعيم وقعت عيناي على عينيه ووقفتا لحظاتٍ لا تريمان عن مركزهما. فرأيت في عينيه مستقبل آمالي وأحلامي، بعد أن كنت أرى فيهما شهوة نفسي. وكان الزعيم آخر من شيّعت ورأسي مرفوع، وقلبي مطمئن، ونفسي راضية.

ثم جمعت نشاطي ويمّمت شطر المأوى، وفي نفسي نغمة ما فتئت تتردّد حتى بلغته. تلك هي: إلى اللقاء... إلى اللقاء...

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي